ورسوله . ومن يشاقق الله ورسوله فإنّ الله شديد العقاب ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ ذلك العذاب الّذى حلّ بالكافرين بسبب أنّهم شاقّوا الله تعالى وشاقّوا رسوله الكريم ﷺ وخالفوهما وكانوا فى شقٍّ غير شقّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به خير الأنام ﷺ . إنّ من يشاقق الله تعالى ورسوله ﷺ ويخالفهما فإنّ الله سبحانه وتعالى شديد العقاب أليم الأخذ على نحو ما جرى لكفّار مكّة فى غزوة بدر .

وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال فى كفّار قريش شبيهةٌ بهذه الآية الكريمة من سورة الحشر[1] فى يهود بنى النّضير . قال تعالى : ﴿ ذلك بأنّهم شاقّوا الله ورسوله . ومن يشاقّ الله فإنّ الله شديد العقاب ﴾ ومن البيّن أنّ الاختلاف بين الآيتين الكريمتين ينحصر فى الشّقّ الثّانى من الآية الكريمة .

جاء فى سورة الأنفال القول : ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإنّ الله شديد العقاب ﴾ وجاء فى سورة الحشر القول : ﴿ ومن يشاقّ الله فإنّ الله شديد العقاب ﴾ ويصحّ القول بشأن الاختلاف فى الموضعين إنّ فكّ التّضعيف فى القول من آية سورة الأنفال : ﴿ ومن يشاقق ﴾ الّذى ظهر معه الحرفان معًا . يتمشّى معه الجمع بين لفظ الجلالة وبين لفظ الرّسول فى القول : ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله ﴾ . وإنّ إدغام الحرفين فى القول من آية سورة الحشر : ﴿ ومن يشاقّ ﴾ وكأنّ الحرفين حرفٌ واحد يتمشّى معه الاكتفاء بلفظ الجلالة وحده فى القول : ﴿ ومن يشاقّ الله ﴾ .

وتشير آخر الآيات الكريمات إلى عذاب الدّنيا القليل بالقياس إلى عذاب الآخرة فى النّار وبئس القرار . قال تعالى : ﴿ ذلكم فذوقوه وأنّ للكافرين عذاب النّار ﴾

ولمّا كان الذّوق أساسًا لما قلّ تناوله برأس اللّسان ممّا له طعم[2] فكأنّ استعارة الذّوق لعذاب الكافرين فى الدّنيا ينبّه إلى قلّة عذاب الدّنيا مهما يكن أليمًا بالقياس إلى عذاب الكافرين يوم القيامة فى النّار وبئس القرار .

---

(١) الآية ٤ .

(٢) انظر مثلاً مفردات الرّاغب الأصفهانى : « ذوق » ١٨٢ .

هذه صفحة ٥٤

[٣]

« توجيهاتٌ للمقاتلين من المؤمنين ونصرٌ من الله لهم على الكافرين »

الآيـــات (١٥ ـ ١٩)

هذه صفحة ٥٥

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ
بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾
فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ
وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

بعد حديث آيات القسم السّابق عن استجابة الله تعالى دعاء المستغيثين من المؤمنين فى بدرٍ ربّهم جلّ وعلا وإمدادهم بالملائكة وبالكثير من مظاهر العون تحوّل الحديث فى هذا القسم إلى الحديث فى الواجبات على المجاهدين فى سبيل الله تعالى كي يكونوا أهلاً لاستجابة الله تعالى دعاءهم . إنّ على الّذين آمنوا إذا لقوا الّذين كفروا زحفًا بالجيش ألاّ يولّوا المشركين أدبارهم إلاّ فى حالتين اثنتين وذلك حينما يتبيّن المجاهد أو الفئة المجاهدة أنّ الأجدى أن يتركوا المكان الّذى يقاتلون فيه إلى مكانٍ آخر يقاتلون فيه بقصد أن يستدرجوا الكافرين ــ مثلاً ــ إلى كمين ، أو أن يخرجوهم من أماكنهم الحصينة وهكذا ، وكذلك حينما يتبيّن المجاهد أو الفئة المجاهدة أنّ الأجدى أن ينضمّوا إلى فئةٍ أخرى مؤمنةٍ كي يكثّروا سوادها ويتقوّوا بها . إنّ من يولّ الّذين كفروا دبره لغير واحدٍ من هذين السّببين يرجع بغضبٍ من الله تعالى

يستحقّه ولعنةٍ من الله تعالى : ﴿ ومأواه جهنّم وبئس المصير ﴾ وتأكيدًا لعون الله تعالى الدّائم للمؤمنين وخِذْلانه جلّ وعلا للكافرين يبيّن السّياق للمؤمنين أنّ الّذى قتل الكافرين على الحقيقة يوم بدرٍ هو ربّ العزّة والجلال ، وأنّ الّذى رمى عيون الكافرين وأفواههم ومناخرهم على الحقيقة بالتّراب الّذى رمت به كفّ المصطفى ﷺ هو ربّ العزّة والجلال ، فعلى المؤمنين أن يعلموا أنّهم بهذه النّعمة موضع اختبارٍ من الله تعالى السّميع العليم فعليهم أن يقوموا بما يحب عليهم من شكرٍ لله تعالى عليها . وفى مقابل العون من الله تعالى للمؤمنين ثمّة العقاب للكافرين الّذين يزيد الله تعالى كيدهم ضعفًا ووهنا . إنّ أولئك الكافرين إن طلبوا من الله تعالى أن ينصر المحقّين على المبطلين فقد نصر الله تعالى المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ ، وإن ينتهوا عن الكفر يرفع عنهم العذاب وفى اعتناق دين الإسلام خيرهم ، وإن يعودوا إلى محاربة الإسلام يأخذهم الله تعالى كما أخذهم فى بدر ، ولن تنفعهم جماعتهم وإن كثر عددها وعتادها وليعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين دائمًا بالنّصر والتّأييد .

الآيتان رقم (١٥ و١٦)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا زحفًا فلا تولّوهم الأدبار . ومن يولّهم يومئذٍ دبره إلاّ متحرّفًا لقتالٍ أو متحيزًا إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير ﴾ .

بعد أن بيّن السّياق العون البعيد المدى من الله تعالى للمؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ فى بدرٍ ، أولى المعارك الحاسمة بين المسلمين والمشركين ، تمّ التّحوّل فى الآيتين الكريمتين اللّتين نحن بصددهما إلى تبيين الواجبات الملقاة على عاتق كلّ مؤمنٍ فى مجال الصّراع الأزليّ بين الحقّ والباطل ، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا . وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

إنّ الآية الكريمة تنادى المؤمنين الّذين أسلموا لله تعالى ربّ العالمين وتأمرهم بأنّهم إذا لقوا الّذين كفروا وجهًا لوجه فى ميدان القتال ، وظهر كلٌّ من جيش التّوحيد والإيمان ، وجيش الكفر والطّغيان متزاحفين متقاربين متدانيين ، وكأنّ كلاًّ من الجيشين لضخامته وكثرة عتاده يزحف إلى الآخر لبطء حركته ، فإنّ على المؤمنين ألاّ يولّوا الكافرين ظهورهم وألاّ يروهم أدبارهم منهزمين عنهم ناكصين على أعقابهم .

ومع أنّ المصدر : ﴿ زحفًا ﴾ فى موضع الحال من الضّمير المفعول فى ﴿ لقيتم ﴾[1] يشمل الجيشين معًا ، جيش المؤمنين وجيش الكافرين فإنّ الكافرين من غير العرب لمّا كانوا يزحفون بالجيش للقتال بعكس العرب الّذين كانوا يلجأون إلى الكرّ والفرّ ، فإنّ هذا القول يصحّ أن يتجاوز الوصف ، إلى توجيه المسلمين فى القتال إلى هجر الكرّ والفرّ ، ضرب العدوّ والفِرار منه ، والتّحوّل إلى أسلوب الزّحف بالجيش كلّه تجاه جيش العدوّ الزّاحف فإنّ ذلك فى القتال أنفع وأجدى .

وقد تأكّد من التّجارب أنّ الزّحف أنكى فى العدوّ . والمعروف أنّ المسلمين بعد نزول هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال أصبحوا يزحفون بالجيش فى القتال بعد أن كانوا يكُرّون ويفِرّون .

إنّ على المسلمين حينما يلقَوْن الكافرين زاحفين بالجيشين ألاّ يولّوا الكافرين أدبارهم إنّما عليهم أن يتقدّموا متوكّلين على الله تعالى مستعينين به جلّ وعلا وحده لا شريك له وأن يحرصوا على إحدى الحسنيين بإذن الله تعالى ، إمّا النّصر وإمّا الشّهادة .

والمعروف أنّ المسلمين يحقّ لهم أن ينسحبوا من أمام جيش الكفّار إذا كان عدد الكفّار أكثر من ضعفي عدد المسلمين ، أي إذا كان عدد المسلمين أقلّ من نصف عدد الكافرين . والله تعالى أعلم .

---

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٥/١٦٣ .

والآية الكريمة الأخرى تعيّن الحالتين اللّتين يصحّ للمسلم أن يولّي الكافر فى القتال دبره مع وجود إحداهما . ويلاحظ أنّ تعيين هاتين الحالتين يأتى فى جملةٍ اعتراضيّة فى أثناء تعيين الآية الكريمة أنواع العذاب الّتى يستحقّها المسلم لله ربّ العالمين لو أنّه ـ لا سمح الله ـ ولىّ الكافر فى ميدان المعركة دبره . أمّا هاتان الحالتان فقد تمّ تعيينهما وحدهما دون سواهما فى القول : ﴿ إلاّ متحرّفًا لقتال أو متحيّزًا إلى فئة ﴾ والتّحرّف فى القتال الانحراف[1] والميل عن القتال ظاهرًا لأجل الكرّ والقتال باطنًا وبذلك يكون التّحرّف نوعًا من الخداع للخصم بقصد الكيد له والكرّ عليه بعد الإيهام بالفرّ منه . إنّ من حقّ المؤمن المجاهد فى سبيل الله تعالى أن يولّي الكافر فى المعركة دبره من أجل خداع الخصم والكيد له كأن يفرّ أمامه من أجل استدراجه من مكانه الحصين وإخراجه فى العراء من أجل الكرّ عليه ، وكأن يفرّ أمامه من أجل أن يوقعه فى فخّ بأن يستدرجه حيث يتربّص به المؤمنون الدّوائر فيحيطون به ويأخذونه ، وهكذا . ويلاحظ أنّ أولى الحالتين متعلّقةٌ بالقتال فثمّة تحرّفٌ من قتالٍ إلى قتال .

أمّا التّحيّز إلى الفئة المؤمنة فالمعنى أنّ هذه هي الحالة الأخرى الّتى يحلّ معها للمؤمن أن يولّي فى المعركة الكافر دبره وذلك بأن يفرّ أمام الكافر من أجل أن ينضمّ إلى فئةٍ من الفئات المؤمنة المقاتلة فيتقوّى بها ، ويشدّ من عضده وعضدها ، ويكثّر سوادها . ويصحّ أن يكون ذلك حينما يتبيّن المؤمن المجاهد فى سبيل الله تعالى أنّ قتاله الكافرين من موقعه ليس بذى كبير أذىً للكافرين ، بسبب قلّة العدد وربّما قلّة العتاد ووشك نفاد الذّخيرة وما إلى ذلك . إنّ من حقّ المؤمن فى هذه الحالة الأخرى أن يولّي الكافرين دبره من أجل أن يتحيّز إلى فئةٍ أخرى مؤمنةٍ مقاتلة كي يكون الأذى فى الكافرين أكبر ، والقتل والجرح فيهم أبلغ .

أمّا الّذى يفرّ أمام الكافرين من أجل غير هذين السّببين فإنّه بنصّ الآية الكريمة يبوء ويرجع بغضبٍ من الله تعالى يستحقّه بسبب ارتكابه هذا الذّنب الكبير ،

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « حرف » ١١٤ .

ويعود بلعنةٍ من الله تعالى مساويةٍ للجرم الّذى ارتكبه ومكافِئةٍ لإتيانه إحدى الموبقات المهلكات من المعاصى . وإذا كان الغضب من الله تعالى واللّعنة بمعنى الطّرد من رحمة الله تعالى من نصيب الفارّ يوم الزّحف وعقابه فى الأولى فإنّ مأواه فى الآخرة جهنّم وبئس المصير جهنّم ، وبئس القرار النّار .

روى البخاريّ ومسلمٌ فى الصّحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : اجتنبوا السّبع الموبقات . قيل يا رسول الله ، وما هنّ ؟ قال : الشّرك بالله ، والسّحر ، وقتل النّفس الّتى حرّم الله إلاّ بالحقّ ، وأكل الرّبا ، وأكل مال اليتيم ، والتّولّى يوم الزّحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات[1] .

ولمّا كان النّصر من عند الله تعالى وحده لا شريك له ويجب على المؤمنين أن يقوموا بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى فقد ألمحت إلى هذه المعانى .

الآيــة رقــم (١٧)

قال تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم . وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى . و لِيُبْلِى المؤمنين منه بلاءً حسنًا . إنّ الله سميعٌ عليم ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : قال النّبيّ ﷺ يوم بدر : اللّهمّ إنّى أَنْشُدُك[2] عهدك ووعدك . اللّهمّ إن شئت لم تُعْبَدْ . فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك . فخرج وهو يقول[3] : ﴿ سيُهْزم الجمع ويولّون الدّبر ﴾[4] وعن ابن عبّاس : رفع رسول الله صلّى عليه وسلّم يديه يوم بدرٍ فقال : يا ربّ إن تَهْلِكْ هذه العصابةَ فلن تُعْبَدَ فى الأرض أبدًا . فقال له جبريل : خذ قبضةً من التّراب فارم بها فى وجوههم . فأخذ قبضةً من التّراب فرمى بها فى وجوههم ، فما من المشركين أحدٌ إلاّ أصاب

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٤ .

(٢) أنشدك : بفتح الهمزة وسكون النّون والمعجمة وضمّ الدّال : أي أطلب منك .

(٣) سورة القمر ٤٥ .

(٤) فتح البارى ٧/٢٨٧ حديث رقم ٣٩٥٣ .

عينيه ومَنْخَريه وفمه ترابٌ من تلك القبضة فولّوا مدبرين[١] قال ابن إسحاق : ثمّ إنّ رسول الله ﷺ أخذ حَفْنةً من الحَصْباء فاستقبل قريشًا بها ثمّ قال : شاهت الوجوه ثمّ نفحهم بها ، وأمر أصحابه فقال : شدّوا . فكانت الهزيمة . فَقَتَل الله تعالى مَنْ قَتَل من صناديد قريش ، وأَسَرَ من أسر من أشرافهم[٢] .

من تأمّل هذه النّصوص الّتى لها علاقةٌ بأسباب النّزول يتبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى قتل المشركين على الحقيقة وإن كان المؤمنون هم الّذين مارسوا القتال حسّاً ، وأنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى رمى التّراب على الحقيقة فى عيون المشركين وأفواههم ومناخرهم وإن كان المصطفى ﷺ هو الّذى رمى بكفّه الشّريفة الحفنة من التّراب والحصباء حسّاً ، وأنّ الله سبحانه وتعالى السّميع العليم هو الّذى ابتلى المؤمنين بالخير امتحانًا وبالصّنع الجميل فيهم اختبارًا بقصد أن يقوموا بما يجب عليهم فى المقابل من الشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه .

إنّ الآية الكريمة تقول للمؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ بصريح اللّفظ إنّكم أيّها المؤمنون وإن كنتم قد مارستم القتال فى بدرٍ فعلاً فإنّ الّذى قتل الكافرين حقيقةً هو الله تعالى الّذى ربط على قلوبكم ، وثبّت أقدامكم ، وأمدّكم بالملائكة ، وكان لكم نعم المولى ونعم النّصير . إنّ الله سبحانه وتعالى نصركم أيّها المؤمنون وأنتم القلّة والأذلّة وأنتم الّذين كنتم تتهيّبون مقاتلة المشركين لكثرتهم وقلّتكم ، استعدادهم للقتال وعدم استعدادكم للقتال . إنّ منتهى ما كان يصحّ أن يصدر عنكم قتالكم للمشركين وأنتم الثّلاثمائة وأربعة عشر رجلاً وهم الألف . وأنتم القليلو العدّة والعتاد وهم الكثيرو العدّة والعتاد . أمّا أن يهزم الثّلاثُمائةِ الألف ، ويقتل الثّلاثمائة سبعين من صناديد قريش ويأسروا سبعين ، فإنّ كلّ ذلك الفضل وذلك النّصر من الله تعالى وحده لا شريك له . وإلى هذا الفضل من الله تعالى أشار القول : ﴿ فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٥ . (٢) السّيرة النّبويّة ١/٦٢٨ .

وتتّخذ الآية الكريمة من الجزئيّة الكريمة الثّانية دليلاً على ما قرّرته الجزئيّة الكريمة الأولى من أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى قتل المشركين فى بدر . قال تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى ﴾ إنّ الجزئيّة الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ وتقول له بصريح اللّفظ : إنّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ما رميت على الحقيقة بكفّك الشّريفة حفنةً من التّراب تدخل فى عيون كلّ الجيش الّذى قوامه ألف رجل وفى أفواههم ومناخرهم وإن كنت حسّاً قد رميت الحفنة من التّراب وذلك على غرار قتل أصحابك للمشركين حسّاً لا حقيقة . إنّ الله سبحانه وتعالى هو على الحقيقة الّذى قتل المشركين ورمى بالتّراب فى عيون المشركين وأفواههم ومناخرهم . ومن البيّن أنّ رمي حفنةٍ من التّراب فى عيون كلّ جيش المشركين وأفواههم ومناخرهم حتّى إنّهم لم يهتدوا سبيلاً ولم يتبيّنوا طريقًا أقرب المعجزتين تناولاً فقد يسبق إلى رُوع بعضهم أنّ الثّلاثمائة يغلبون الألف ولكن لا يكاد يسبق إلى رُوع أحدٍ أنّ إيصال التّراب الّذى رمت به كفّ واحدة إلى كلّ عيون جيش وأنوفهم ومناخرهم كان بفعل تلك الكفّ الواحدة .

وتقرّر الجزئيّة الكريمة الثّالثة اختبار الله تعالى المؤمنين بالنّعماء : ﴿ وليُبْلِي المؤمنين منه بلاءً حسنا ﴾ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى نصر المؤمنين وهم أذلّة وقلّة على المشركين فى بدرٍ ليختبر الله سبحانه وتعالى المؤمنين[1] بالخير وبالاختبار الحَسَن والصّنع الجميل بهم ليعلم الله سبحانه وتعالى علم ظهور أيقوم المؤمنون بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على اختباره جلّ وعلا لهم بالنّعْماء فى هيئة النّصر المبين أم أنّهم — لا سمح الله — يبادلون الإنعام بالكفران . جاء فى اللّسان[2] : « بلوت الرّجل بَلْواً وبلاءً وابتليته : اختبرته . . . . والله تعالى يُبْلِي العبد بلاءً حسنًا ويُبْليه بلاءً سيّئاً ، نسأل الله تعالى العفو والعافية . . . . وفى الحديث : اللّهم لا تُبْلِنا إلاّ بالّتى هي أحسن ، والاسم البلاء ، أي لا تمتحنّا . ويقال أبلاه الله يُبْليه إبلاءً حسنًا إذا صنع به صنعًا جميلاً . وبلاه الله بلاءً وابتلاه أي اختبره . . . . والمعروف أنّ

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : « بلى » ٦١ .

(٢) « بلا » .

الابتلاء يكون فى الخير والشّرّ معاً من غير فرقٍ بين فعليهما ، ومنه قوله تعالى[١] ﴿ ونبلوكم بالشّرّ والخير فتنة ﴾

إنّ على المؤمنين أن يقوموا بما يجب عليهم من شكرِ لله تعالى السّميع لاستغاثتهم فى بدرٍ العليم بقلّتهم وذلّتهم فما أكبر نعمة النّصر الّتى ابتلى الله تعالى بها المؤمنين فعليهم القيام بشطر الإيمان وهو الشّكر . والمعروف أنّ الإيمان شطران ، شطرٌ شكر على نحو ما جرى للمؤمنين من نصر فى بدر ، وشطرٌ صبر على نحو ما جرى للمؤمنين فى أحد . وتنبيهاً إلى وجوب عدم نسيان النّصر والشّكر لازمِه فى حال الهزيمة ــ لا سمح الله ــ على نحو ما جرى للمسلمين فى أحدٍ من وجوب الصّبر جاء قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة آل عمران[٢] : ﴿ ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّة فاتّقوا الله لعلّكم تشكرون ﴾ وقول الحقّ جلّ وعلا[٣] : ﴿ أَوَلَمّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم . إنّ الله على كلّ شىءٍ قدير ﴾ إنّ على المؤمنين الّذين أصابتهم مصيبة أحد بقتل سبعين منهم ألاّ ينسوا أنّهم قد أصابوا من مشركى قريش مثليها فى بدر فقد قتلوا سبعين وأسروا سبعين . ومعروفٌ أنّ الأسير يمكن أن يُقْتَل . إنّ على المؤمنين أن يقوموا بواجب كلٍّ من النّصر بالشّكر ، والهزيمة بالصّبر . وبذلك يكمل الإيمان . جاء فى السّيرة النّبويّة[٤] بشأن قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً ﴾ : « أي ليعرّف المؤمنين من نعمته عليهم فى إظهارهم على عدوّهم وقلّة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقّه ، ويشكروا بذلك نعمته » . وروى التّرمذيّ والنّسائيّ وابن حبّان والحاكم بإسنادٍ صحيح عن عليّ قال : جاء جبريل إلى النّبيّ ﷺ يوم بدرٍ فقال : خيّر أصحابك فى الأسرى ، إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء على أن يقتل منهم عاماً مقبلاً مثلهم . قالوا : الفداء ويقتل منّا . وأخرج مسلمٌ هذه القصّة مطوّلة من حديث عمر ذكر فيها السّبب[٥] .

والآية الكريمة التّالية تبيّن خسران المشركين المستمرّ فإلى .

---

(١) سورة الأنبياء ٣٥ . (٢) الآية ١٢٣ . (٣) سورة آل عمران ١٦٥ .
(٤) ١/ ٦٦٨ . (٥) فتح البارى ٧/٣٢٤ .

الآيــــة رقــــم (١٨)

قال تعالى : ﴿ ذلكم وأنّ الله موهن كيد الكافرين ﴾

ذلكم : اسم إشارة مبنيّ فى محل رفع مبتدأ ، خبره محذوفٌ تقديره حـقّ . أو هـو خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره الأمر ذلكم . والّـلام للبعـد . والكـاف حـرف خطـاب . والميم حرفٌ لجمع الذّكور[١] .

تشير الآية الكريمة إلى أنّ ذلك الفعل بالمشركين مـن قتـلٍ وهزيمـةٍ وأسـرٍ ومـا إلى ذلك حقٌّ ابتلى الله تعالى به المؤمنين كي يقوموا بواجب الشّـكر . وعلـى المشـركين فى المقابل أن يعتبروا بما حلّ بهم من عذاب وابتلاهـم الله تعالى بـه مـن عقـاب كـي يتركوا الشّرك ويتحوّلوا مسـلمين لله ربّ العـالمين . وكـي يعلـم المشـركون أنّ الله سبحانه وتعالى موهن كيد الكافرين ، ومضعف مكرهم ، ومذهـب قواهـم بـالهزائم المتوالية وبالقتل والأسر وأخذ المسلمين أموالهم . والآية الكريـمة التّاليـة بمثابـة البـلاغ لأولئك المشركين فإلى .

الآيــــة رقــــم (١٩)

قال تعالى : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهـو خيرٌ لكـم . وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأنّ الله مع المؤمنين ﴾

روى ابن إسحاق أنّه لمّا التقى النّاس ودنا بعضهم مـن بعـضٍ قـال أبـو جهـل بـن هشام : اللّهـمّ أقطعنـا لـلرّحم ، وآتانـا بمـا لا يُعْـرَف فَأَحِنْـه[٢] الغـداة . فكـان هـو المستفتح[٣] أخرجـه الإمـام أحمـد ، وأخرجـه النّسـائيّ فى التّفسـير والحـاكم فـى

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ١٦٦/٥ .   (٢) أَحِنْه : أهلكه .

(٣) السّيرة النّبويّة ٢٦٨/١ وانظر أسباب النّزول ٢٦٨ وتفسير ابن كثير ٢٩٦/٢ وتفسير الطّبري ١٣٧/٩ ـ ١٣٩ .   (٤) تفسير ابن كثير ٢٩٦/٢ .

مستدركه وقال : صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه[٤] ومعنى إن تستفتحوا : إن تطلبوا الظّفر[١] وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين[٢] وتستحكموا الله على أقطع الحزبين للرّحم وأظلم الفئتين وتستنصروه عليه فقد جاءكم حكم الله ونصره المظلوم على الظّالم والحقّ على المبطل[٣] .

تخاطب الآية الكريمة المشركين بزعامة أبى جهل وتقول لهم : إن تطلبوا الفتح والنّصر والظّفر على الضّالّ من الفريقين فقد جاءكم الفتح من الله تعالى والقضاء بهلاككم . وإن تنتهوا عن الكفر وتكفّوا عن الضّلال فهو خيرٌ لكم من خزي الدّنيا والآخرة وعذابهما . وإن تعودوا أيّها المشركون إلى حرب الله تعالى وحرب رسوله ﷺ وحِزْب الله تعالى نعد إلى هزيمتكم وذلّ معاطسكم وقتلكم وأسركم ولن تُغْنِيَ عنكم فئتكم ولو كثرت ، وجماعتكم المتظاهرة التى يرجع بعضهم إلى بعضٍ فى التّعاضد[٤] ويفيء بعض أفرادها إلى بعضهم الآخر . ومن البيّن أنّ الجماعة المشركة تفيء إلى الباطل وترجع إلى البغي . ولا تقف الآية الكريمة عند خِذْلان الكافرين إنّما تتجاوز ذلك إلى تحديد الوعد للمؤمنين بأنّ الله سبحانه وتعالى معهم بالنّصر والتّأييد ، والتّوجيه والتّسديد . وهكذا يدور المشركون فى دائرةٍ مفرغةٍ إذ لا يكادون يتخلّصون من ورطةٍ حتّى يجدوا أنفسهم فى ورطةٍ أعقد حتّى تخترمهم المنيّة وتتوفّاهم ملائكة العذاب إن لم يتوبوا إلى الله تعالى بالإيمان وعمل الصّالحات .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « فتح » ٣٧٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢٩٦/٢ .
(٣) تفسير الطّبري ١٣٧/٩ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « فيأ » ٣٨٩ .

[٤]

« من نعوت المؤمنين ومن صفات الكافرين وتوجيهاتٌ للمؤمنين »

الآيـــات (٢٠ ــ ٢٩)

يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ
تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟
ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

بيّنت آيات القسم السّابق بعض واجبات المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى الّذين يستحقّون النّصر من الله تعالى والّذين يستحقّون أن يكون الله تعالى معهم دائماً بالنّصر والتّأييد ، كما بيّنت أنّ التّأييد من الله تعالى للمؤمنين والنّصر لهم على الكافرين نوعٌ من الاختبار للمؤمنين ليعلم جلّ وعلا علم ظهور من يبادل النّصر بالشّكران فيزيده جلّ وعلا من النّعم ومن يبادله بالكفران كي ينال جزاءه العادل . وتتحوّل آيات هذا القسم التّالى إلى تبيين بعض مفردات المنهج ومعالم الطّريق . وإنّ أوّل ما يلاحظ بشأن نظم الآيات الكريمات أنّ محورها يدور حول الّذين آمنوا ولهذا كثر فى القسم النّداء فى أوائل الآيات الكريمات فى هذه الصّورة : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ﴾ وإنّ هذه الصّيغة فى النّداء ترد وفق نسقٍ بديع . وتفسير ذلك أنّ الآية الكريمة الأولى تبدأ بهذا النّداء ، وبعد ثلاث آياتٍ كريمات يأتى النّداء للمرّة الثّانية . وبعد آيتين كريمتين أخريين يأتى النّداء للمرّة الثّالثة . وبعد آيةٍ كريمة واحدةٍ أخرى يأتى النّداء للمرّة الرّابعة والأخيرة . إنّ المؤمنين فى النّداء الأوّل يُؤْمَرون بأن يطيعوا الله تعالى طاعةً مطلقةً ويطيعوا رسوله ﷺ طاعةً مطلقةً ويُنْهَوْن أن يعرضوا عنه ﷺ بأجسادهم وقلوبهم وهم الّذين يسمعونه ﷺ ويعون ما يقول ، وأن يكونوا كالّذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون سماع فهمٍ وتدبّر . ولمّا كان من يقف من النّاس عند السّماع المجرّد يشبه الحيوان الّذى يقف بالضّرورة عند هذا المستوى الأوّل من السّماع فقد نزّل السّياق الصّمّ عن قول الحق البكم عن نطقه الّذين لا يعقلون ولا يعون ولا يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً منزلةً أحطّ من منزلة الدّوابّ والأنعام ، لأنّها تحرص على ما ينفعها ولا يضرّها بالغريزة فى حين يضرّ الكافر والمنافق على ما يضرّه وهو المكلّف المسئول . إنّ هؤلاء المصرّين على الكفر قد علم الله تعالى أنّهم لا خير فيهم ولهذا لم يُسْمِعْهم الله تعالى سماع تدبّر . ولو

فُرِض أنّ ربّ العزّة أسمعهم سماع تدبّر على غرار إسماعه جلّ وعلا المنافقين لتولّوا بأجسادهم وأعرضوا بقلوبهم وأصرّوا على الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى . وإنّ المؤمنين فى النّداء الثّانى يؤمرون بأن يجيبوا الله تعالى بإفراده جلّ وعلا بالعبادة ، ويجيبوا رسوله ﷺ إذا دعاهم لما يحييهم بالإيمان وذلك باتّباع القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة ، وبأن يعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى يحول بين المرء وقلبه فلا يكون إيمانٌ ولا كفرٌ إلاّ بإذن الله تعالى خالق الإنسان فى أحسن تقويم ، وبأن يعلموا أنّهم إليه جلّ وعلا يوم القيامة يُحْشَرون ، وبأنّ عليهم أن يتّقوا فتنةً وابتلاءً من الله تعالى لا يصيب الّذين ظلموا منهم خاصّة ولكن يشمل المذنبين والّذين لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وبأن يعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى شديد العقاب فى الآخرة . وبعد أمر المؤمنين بالصّبر على الطّاعات وعن المعاصى يؤمرون بأن يشكروا لله تعالى نعمه وآلاءه بعبادته جلّ وعلا حقّ العبادة وأن يذكروا إذ هم قلّةٌ فى مكّة المكرّمة قبل الهجرة أذلّةٌ يخافون أن يتخطّفهم النّاس وأن يأخذوهم بسلاحهم كلمح البصر . لقد أبدلهم الله تعالى بالقلّة كثرة ، وبالذّلّة قوّةً ونصراً ، وبالخوف أمناً وأماناً ورزقاً حسناً . وإنّ المؤمنين فى النّداء الثّالث يُنْهَوْن أن يخونوا الله تعالى ويخونوا الرّسول ﷺ ويخونوا أماناتهم الّتى ائتمنوا عليها عن علمٍ وسابق إصرار بأن يرتكبوا الذّنوب ، ويتركوا سنّته ﷺ ، ويعصوا الله تعالى . إنّ عليهم أن يعلموا أنّ أموالهم وأولادهم فتنةٌ واختبارٌ من الله تعالى لهم فعليهم أن يؤثروا المصلحة العامّة على الخاصّة ، العاجلة الّتى فيها عند الله تعالى أجرٌ عظيمٌ لهم على الآجلة . وإنّ المؤمنين فى النّداء الرّابع والأخير يُخبرون بأنّهم إن يتّقوا الله تعالى يجعل لهم فرقاناً وفصلاً بين حقّهم وباطل سواهم بأن ينير بصائرهم ويكفّر عنهم سيّئاتهم ويتركها ، ويغفر لهم ذنوبهم ويسترها ويبدّلها حسنات بفضله العظيم جلّ وعلا وخيره العميم .

الآيتان رقم (٢٠ و٢١)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولّوا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالّذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾

تنادى الآية الكريمة الأولى المسلمين لله ربّ العالمين الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّد ﷺ نبيّاً وبالقرآن الكريم إماماً وتأمرهم بأن يطيعوا الله تعالى طاعةً مطلقة ، وأن يطيعوا رسوله ﷺ طاعةً مطلقةً كذلك ، وتنهاهم عن التّولى عنه ﷺ والإدبار عنه عليه الصّلاة والسّلام وهم يسمعون دعوته ﷺ ويعونها قرآناً كريماً وسنّةً نبويّةً مطهّرة . إنّ سنّة المصطفى ﷺ هي المبيّنة للقرآن الكريم ، وقد جاء فى سورة النّحل[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نُزّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون ﴾ .

وتنهى الآية الكريمة الأخرى المؤمنين أن يكونوا كالكافرين ويلحق بهم المنافقون الّذين قالوا سمعنا بآذاننا ما تدعونا إليه وهم فى الحقيقة لا يسمعون سماع تدبُّرٍ ووعيٍ وفهم . إنّهم بسبب تولّيهم كالأنعام بل هم أضلّ . وإلى انحطاط الكافرين ومن فى حكمهم إلى درك الأنعام فما دونها أشارت .

الآيتان رقم (٢٢ و٢٣)

قال تعالى : ﴿ إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الصّمّ البكم الّذى لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوْا وهم معرضون ﴾ .

الدّبّ والدّبيب مشيٌ خفيف ، ويُستَعْمَل ذلك فى الحيوان وفى الحشرات أكثر[2] ولفظ الدّوابّ فى الآية الكريمة عامٌّ فى جميع الحيوانات[3] ابتداءً بالإنسان لأنّ الدّبيب صفةٌ مشتركة بين كلّ المخلوقات الحيّة فى الأرض .

---

(١) الآية ٤٤ . (٢و٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « دبّ » ١٦٤ .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ شرّ ما يدبّ على الأرض من مخلوقات الله تعالى ويمشى عليها الصّمّ عن سماع دعوة الحقّ سماع تدبّر ، البكم عن قول الحقّ ونطق الصّدق ، الّذين لا يعقلون ما يسمعون ولا يفطنون لمعانيه ومراميه .. إنّهم أولئك الّذين لا يستعملون عقولهم الّتى امتنّ الله تعالى عليهم بها استعمالاً صحيحاً ولا ينتفعون بها . وحينما يكون استعمال لفظة الدّوابّ بحقّ الحيوان والحشرات هو الأكثر فذلك معناه أنّ الكافرين ومن لفّ لفّهم وقد انحطّوا إلى درك الحيوان هم شرّ ذلك الجنس من المخلوقات . بل إنّ الكافرين تهبط بهم الآية الكريمة إلى درك أحطّ من درك الحيوان لأنّ الحيوان لا عقل له أصلاً فى حين يعطّل الكافر نعمة العقل . ثمّ إنّ الحيوان الّذى لا عقل له وبالتّالى هو غير مكلّف يحرص بغريزته على ما ينفعه فيقترب منه فى حين يحرص الكافر على ما يضرّه وبذلك هو يخالف كلاً من العقل والغريزة .

ولمّا كان ربّ العزّة إنّما يهدى سبله جلّ وعلا أولئك الّذين يجاهدون فيه عزّ وجلّ فذلك معناه أنّ الّذين لا يعلم الله تعالى فيهم خيراً لا يوفّقهم ولا يهديهم سبيلاً بل يزيدهم ضلالاً مع ضلالهم . وقد أشارت الآية الكريمة الأخرى إلى هذه المعانى . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة لو علم فى أولئك الكافرين والمنافقين خيراً لأسمعهم سماع تدبّر ووعي وبذلك يرتفعون عن مستوى السّماع المجرّد الّذى يقف عنده جنس الحيوان بالضّرورة ولا يستطيع أن يتعدّاه . ولأنّهم لا خير فيهم فإنّ الله سبحانه وتعالى لم يسمعهم سماع تدبّر . ولو فُرِض أنّ ربّ العزّة أسمعهم فعلاً سماع تدبّر لتولّوا وهم معرضون ، وانقلبوا على أعقابهم لا يلوون على أحد .

والدّليل على الإعراض بعد السّماع سماع تدبّر المنافقون الّذين ضربت الآيتان الكريمتان التّاسعة عشرة والعشرون من سورة البقرة المثل لاهتدائهم المحدود بنور تعاليم الإسلام كما يمثّلها القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة ثمّ ارتدادهم على أعقابهم إلى الكفر بالبرق الّذى يكاد يخطف أبصارهم بعدد مرّات لمعانه وبذلك هم

يمشون رغم تأذّى الأعين من لمعان البرق . فإذا أظلم عليهم قاموا فى أمكانهم ووقفوا فى مواضعهم . واستمرّ المنافقون فى ظلمات الشّكوك والرّيب والكفر حتّى وجدوا أنفسهم فى الدّرك الأسفل من النّار والعياذ بالله . إنّ ربّ العزّة أسمع المنافقين سماع تدبّر ومع ذلك فإنّهم تولّوا وانصرفوا وهم معرضون مستكبرون كافرون صادّون عن سبيل الله تعالى .

ومن البيّن التّقابل فى الصّفات بين الّذين يعنيهم القول هنا : ﴿ ولو أسمعهم لتولّوْا وهم معرضون ﴾ وبين القول خطاباً للمؤمنين فى الآية الكريمة الأولى من القِسْم : ﴿ ولا تولّوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ إنّ المنافقين ومن فى حكمهم يتولّون بأجسادهم ويعرضون بقلوبهم ونفوسهم وآذانهم وإنّ المؤمنين يُنْهَوْن عن التّولّى بأجسادهم بعد أن سمعوا من النّبيّ ﷺ ووعوا عنه عليه الصّلاة والسّلام .

ويستمرّ نداء المؤمنين وتوجيههم فى الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــــة رقم (٢٤)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تُحْشَرون ﴾

تنادى الآية الكريمة الّذين آمنوا للمرّة الثّانية فى القسم وتأمرهم بأن يستجيبوا لله تعالى ولرسوله ﷺ إذا دعاهم المصطفى ﷺ رسول ربّ العالمين لما يحييهم بالإيمان وعمل الصّالحات بعد أن كانوا بسبب الكفر بمثابة الأموات سكّان القبور . ومعنى استجيبوا لله : أجيبوا الله[1] ومن البيّن أنّ الاستجابة فى حقّ الرّسول ﷺ بمعنى طاعته عليه الصّلاة والسّلام فيما أمر به ونهى عنه ، بينما الاستجابة فى حقّ الذّات العليّة بمعنى إفراد الله تعالى بالعبادة . وممّا يبيّن معاني الجزئيّة الكريمة ومراميها ما جاء فى سبب نزول الآية الكريمة . جاء فى صحيح البخاري[2] عن أبى سعيد بن المعلّى

---

(١) فتح البارى ٣٠٨/٨ وصحيح البخاري ٧٧/٦ وتفسير ابن كثير ٢٩٧/٢ .

(٢) ٧٧/٦ وانظر فتح البارى ٣٠٧/٨ حديث رقم ٤٦٤٧ .

رضي الله عنه قال : كنت أصلّى فمرّ بى رسول الله ﷺ فدعانى فلم آته حتّى صلّيت ثمّ أتيته فقال : ما منعك أن تأتى . ألم يقل الله : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم ﴾ ثمّ قال : لأعلّمنّك أعظم سورةٍ فى القرآن قبل أن أخرج . فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكَرْتُ له ، . . . . قال : هي الحمد لله ربّ العالمين ، السّبع المثانى . وجاء الحديث فى تفسير سورة الفاتحة الكريمة فى هذه الصّورة[1] « عن أبى سعيد بن المعلّى قال : كنت أصلّى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أُجِبْه فقلت : يا رسول الله إنّى كنت أصلّى فقال : ألم يقل الله : ﴿ استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم ﴾ ثمّ قال لى : لأعلّمنّك سورةً هي أعظم السّور فى القرآن ، قبل أن تخرج من المسجد . ثمّ أخذ بيدى . فلمّا أراد أن يخرج قلت له . ألم تقل : لأعلّمنّك سورةً هي أعظم سورةٍ فى القرآن . قال : ﴿ الحمد لله ربّ العالمين ﴾ هي السّبع المثانى والقرآن العظيم الّذى أوتيته » « قال الخطّابي : فى قوله : هي السّبع المثانى والقرآن العظيم الّذى أوتيته ، دلالةٌ على أنّ الفاتحة هي القرآن العظيم ، وأنّ الواو ليست بالعاطفة الّتى تفصل بين الشّيئين ، وإنّما هي الّتى تجىء بمعنى التّفصيل كقوله[2] : ﴿ فاكهةٌ ونخلٌ ورمّان ﴾ وقوله[3] : ﴿ وملائكتِهِ ورسله وجبريل وميكال ﴾ انتهى . وفيه بحثٌ ، لاحتمال أن يكون قوله : ﴿ والقرآن العظيم ﴾ محذوف الخبر والتّقدير : ما بعد الفاتحة مثلاً ، فيكون وصف الفاتحة انتهى بقوله هي السّبع المثانى ، ثمّ عطف قوله : ﴿ والقرآن العظيم ﴾ أي ما زاد على الفاتحة ، وذكر ذلك رعايةً لنظم الآية . ويكون التّقدير : والقرآن العظيم هو الّذى أوتيته زيادةً على الفاتحة »[4] .

وحينما يدعو المصطفى ﷺ أبا سعيد بن المعلّى رضي الله تعالى عنه ويتلو قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ وقد عرفنا الحياة هنا بمعنى الإيمان وما يحيى المؤمنين ما يصلحهم[5] ثمّ يعلّم عليه الصّلاة

---

(١) صحيح البخارى ٦/٢٠ وانظر فتح البارى ٨/١٥٦ حديث رقم ٤٤٧٤ .
(٢) سورة الرّحمن ٦٨ . (٣) سورة البقرة ٩٨ . (٤) فتح البارى ٨/٣٠٨ .
(٥) انظر صحيح البخارى ٦/٧٧ وفتح البارى ٨/٣٠٨ .

والسّلام أبا سعيد بن المعلّى أعظم سورةٍ فى القرآن وهي سورة الفاتحة يكـون معنى ذلك أنّ سورة الفاتحة وهي السّبع المثانى والقرآن العظيم هي الّتى يحيا بهـا المؤمنـون ويصلحون . يقول فى هذا المعنى على سبيل المثال ، القرطبيّ فى تفسيره[1] : « وفى الفاتحة من الصّفات ما ليس لغيرها حتّى قيل : إنّ جميع القـرآن فيهـا . وهـي خمسٌ وعشرون كلمةً تضمّنت جميع علوم القرآن . ومـن شـرفها أنّ الله سبحانه قسـمها بينه وبين عبده ، ولا تصحّ القربة إلاّ بها ، ولا يلحـق عمـلٌ بثوابهـا . وبهـذا المعنى صارت أمّ القرآن العظيم ، كما صارت : ﴿ قل هو الله أحـد ﴾ تعـدل ثلـث القـرآن . إذ القرآن توحيدٌ وأحكامٌ ووعـظ ، و﴿ قـل هـو الله أحـد ﴾ فيهـا التوحيـد كلّـه . وبهذا المعنى وقع البيان فى قوله عليه السّلام لأبيّ : أيّ آيةٍ فى القرآن أعظم ؟ قال : ﴿ الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم ﴾ وإنّما كانت أعظم آية لأنّها توحيدٌ كلّها ، كما صار قوله : أفضل ما قلته أنا والنّبيّون من قبلى لا إله إلاّ الله وحـده لا شـريك لـه ، أفضل الذّكر ، لأنّها كلماتٌ حوت جميع العلوم فى التّوحيد .

والفاتحة تضمّنت التّوحيد والعبادة والوعظ والتّذكير . ولا يُسْتَبْعَدُ ذلك فى قـدرة الله تعالى » .

وهكذا يتبيّن أنّ الحياة الحقيقيّة للمؤمن تكون بتطبيق تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهـم أجمعين . والمعـروف أنّ سنّة المصطفى ﷺ هي المبيّنة للقرآن الكريم .

وتنبيهاً على أنّ المرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلاّ بإذن الله تعالى وأنّه محاسبٌ يوم القيامة على كلّ شىء يجىء فى شقّ الآية الكريمة الآخر القـول : ﴿ واعلمـوا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تُحْشرون ﴾ عن ابن عبّاس : ﴿ يحول بين المرء وقلبه﴾ قال : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكـافر والإيمـان[2] إنّ الإنسـان ليس لـه فـى الحقيقة سلطةٌ على قلبه ، وإن كان يظنّ غير ذلـك . والحقيقـة أنّ الإنسـان ليـس لـه

---

(١) تفسير القرطبى ٩٦ . (٢) تفسير الطّبري ١٤٢/٩ وتفسير ابن كثير ٢٩٧/٢ .

سلطةٌ على قلبه حسّاً ولا معنى . إنّ القلب يقوم بوظيفته الحسّيّة بإرادة الله تعالى فلا يد للإنسان فى دقّ عضلات قلبه ولا فى سكوت القلب وتوقّف دقّه وذلك معناه الموت . وإنّ القلب يقوم بوظيفته المعنويّة بإرادة الله تعالى كذلك . وإنّ خير ما يبيّن أبعاد معنى القول : ﴿ واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ الأحاديث النّبويّة الشّريفة الّتى نستأنس ببعضها .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان النّبيّ ﷺ يكثر أن يقول : يا مقلّب القلوب ثبّت قلبى على دينك . قال : فقلنا يا رسول الله آمنّا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم . إنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلّبها . وهكذا رواه التّرمذيّ فى كتاب القَدَر ثمّ قال : حسن[1] وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول : إنّ قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرّحمن كقلبٍ واحدٍ يصرّفها كيف شاء . ثمّ قال رسول الله ﷺ : اللّهمّ مصرّف القلوب صرّف قلوبنا إلى طاعتك . انفرد بإخراجه مسلم عن البخارى فرواه مع النّسائى[2] وروى الإمام أحمد عن أمّ سلمة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ كان يكثر فى دعائه يقول : اللّهمّ مقلّب القلوب ثبّت قلبى على دينك . قال : فقلت يا رسول الله أَوَ إنّ القلوب لتُقلّب ؟ قال : نعم . ما خلق الله من بشرٍ من بنى آدم إلاّ أنّ قلبه بين أصبعين من أصابع الله عزّ وجلّ ، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه ، فنسأل الله ربّنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمةً إنّه هو الوهّاب . قالت : فقلت يا رسول الله ألا تعلّمنى دعوةً أدعو بها لنفسى ؟ قال : بلى ، قولى : اللّهمّ ربّ النّبيّ محمّد اغفر لى ذنبى ، وأذهب غيظ قلبى ، وأجرنى من مضلاّت الفتن ما أحييتنى[3] .

إنّ ربّ العزّة والجلال مليك كلّ شىء هو الّذى نُحْشر إليه يوم القيامة ونرجع إليه ونصير من أجل الحساب فالجزاء .

(١و٢و٣) تفسير ابن كثير ٢٩٨/٢ .

وتبيّن الآية الكريمة التّالية المسئوليّة الملقاة على عاتق كلّ مسلم تجاه ما يعمله الآخرون ووجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فإلى .

الآيـــة رقـم (٢٥)

قال تعالى : ﴿ واتّقوا فتنةً لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّةً واعلموا أنّ الله شديد العقاب ﴾ .

من البيّن أنّ الآية الكريمة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . والمعروف أنّ أهمّ ما يميّز أمّة محمّد ﷺ ويثبت لها بإذن الله تعالى الخيريّة نعت الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ كنتم خير أمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ وقال تعالى(٢) : ﴿ ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ إنّ المفلحين هم الّذين يدعون إلى الخير بالدّخول في دين الإسلام والاستمساك بتعاليمه ، ويأمرون بالمعروف شرعاً وعقلاً ، وينهون عن المنكر شرعاً وعقلاً . وإنّ أهمّ مقوّم يدلّ على وجود خير أمّةٍ أخرجت للنّاس هو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر .

وإنّ الآية الكريمة من سورة الأنفال تتحدّث عن عقاب هذه الأمّة وعذابها حينما تتخلّى عن رسالتها في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وحينما تخون ــ لا سمح الله ــ الأمانة . إنّ هذه الأمّة تتقى ــ بإذن الله تعالى ــ عذاب الله تعالى حينما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وإنّ هذه الأمّة تصيبها الفتنة ، وهي بمعنى الاختبار والبلاء(٣) والمحنة(٤) والابتلاء بإذن الله تعالى حينما يرتكب الظّالمون أمام عينيها الموبقات ويأتون المنكر ويفعلون

---

(١) سورة آل عمران ١١٠ .
(٢) سورة آل عمران ١٠٤ .
(٣) تفسير الطّبري ١٤٤/٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢٩٨/٢ .

كبائر الإثم والفواحش ثمّ لا تغير هذه الأمّة المنكر بيدها ، فإن لم تستطع فبلسانها ، فإن لم تستطع فبقلبها . إنّ الأخذ الشّديد من الله تعالى والعقاب الأكيد لا يخصّ المذنبين وحدهم إنّما يشمل كذلك السّاكتين عن المنكر .

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أنّ رسول ﷺ قال : والّذى نفسى بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثمّ لتدعنّه فلا يستجيب لكم[١] وروى الإمام أحمد أنّ أمّ سلمة زوج النّبيّ ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا ظهرت المعاصى فى أمّتى عمّهم الله بعذابٍ من عنده . فقلت يا رسول الله : أما فيهم أناسٌ صالحون ؟ قال : بلى . قالت : فكيف يصنع أولئك ؟ قال : يصيبهم ما أصاب النّاس ثمّ يصيرون إلى مغفرةٍ من الله ورضوان[٢] وثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان . وفى رواية : وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل[٣] قال عزّ من قائل[٤] : ﴿ اعلموا أنّ الله شديد العقاب وأنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ .

ولّما كان الإيمان شطرين ، وقد نال شطر الصّبر حظّه فقد بقي أن ينال شطر الشّكر حظه وكان ذلك فى .

الآيـــة رقـم (٢٦)

قال تعالى : ﴿ واذكروا إذا أنتم قليلٌ مستضعَفون فى الأرض تخافون أن يتخطّفكم النّاس فآواكم وأيّدكم بنصره ورزقكم من الطّيّبات لعلّكم تشكرون ﴾

بعد أمرت الآية الكريمة السّابقة الّذين آمنوا بالصّبر على الطّاعة والصّبر عن المعاصى تأمرهم هذه الآية الكريمة التّالية بالشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه .

(١و٢) تفسير ابن كثير ٢٩٩/٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٩٠/١ .
(٤) سورة المائدة ٩٨ .

ويكون الشّكر بالمقارنة بين النّعم اللّاحقة والنّقم السّابقة والقيام بلازم الشّكر وهو طاعة الله تعالى كي تبقى النّعم وتزداد . والآية الكريمة فى مجال المقارنة تذكر ثلاثاً من النّقَم حلّت محلّها ثلاثٌ من النّعم . وهذه هي النّقم والنّعم الّتى حلّت محلّها .

نقمة القلّة حلّت محلّها نعمة الكثرة .

نقمة الذّلّة حلّت محلّها نعمة التّأييد بالنّصر .

نقمة الخوف حلّت محلّها نعمة الرّزق من الطّيّبات ثمرةً للأمن والأمان .

إنّ الآية الكريمة تأمر المؤمنين من المهاجرين بأن يذكروا ولا ينسوا إذ كانوا فى مكّة المكرّمة قبل الهجرة قليلين فى العدد والعدّة . ولّما كانت القلّة لا تَعْنِى الذّلّة دائماً فإنّ الآية الكريمة تثبت لتلك القلّة قبل الهجرة الذّلّة ، فقد كانوا مستضعفين فى الأرض . ولّما كان من المستضعفين من يشعر بالأمن والأمان فلا يعنى الضّعف دائماً الخوف على الحياة فإنّ الآية الكريمة تضيف إلى القلّة والذّلّة الخوف على الحياة . لقد كان المؤمنون قبل الهجرة يخافون أن يتخطّفهم النّاس الكافرون الّذين يحيطون بهم من كلّ جانب ، وأن يخطفوهم بسرعة ، ويمزّقوهم بسيوفهم ورماحهم فى لمح البصر .

لقد أكرم الله تعالى المؤمنين بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة بالنّعم فى مقابل النّقم . إنّ القلّة قد زالت وحلّ محلّها الكثرة فقد آوى الله تعالى المهاجرين وجعل لهم مكاناً يأوون إليه وأحباباً هم الأنصار يكثّرون سوادهم ، ويحبّونهم ، بل يؤثرونهم على أنفسهم . وإنّ الذّلّة قد زالت وحلّ محلّها التّأييد من الله تعالى فى بدرٍ والتّقوية بالنّصر على الكافرين فى يوم الفرقان يوم بدر . وإنّ الخوف أن يتخطّفهم النّاس حلّ محلّه الشّعور بالاطمئنان والأمن والأمان ، وكانت ثمرة كلّ ذلك رزق الله تعالى لهم من الطّيّبات حرباً وسلماً على السّواء . أمّا الطّيّبات حرباً فالغنائم والأنفال فى بدر. وأمّا الطّيّبات سلماً فالرّزق الهنيء المريء فى المدينة المنوّرة . لقد عبّرت الآية الكريمة عن نعمة الأمن والأمان بلازمهما أو ثمرتها وهو الإطعام من الجوع .

إنّ المطلوب من المؤمنين أن يقوموا بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على نعمه وآلائه بإفراد الله تعالى بالعبادة والطّاعة المطلقة لله تعالى ولرسوله الكريم ﷺ. وبعد الحثّ على الصّبر مع النّقم والشّكر مع النّعم يأتي الحثّ على مطلق الطّاعة في آيتين كريمتين هما

الآيتان رقم (٢٧ و ٢٨)

قال تعالى: ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تخونوا الله والرّسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون. واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنةٌ وأنّ الله عنده أجرٌ عظيم ﴾.

من العلماء من ذهب إلى أنّ الآيتين الكريمتين نزلتا في مناسبةٍ معيّنة. جاء - مثلاً - في تفسير ابن كثير[١]: « قال عبد الرّزّاق بن أبي قتادة والزّهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر[٢] حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقه أي إنّه الذّبح. ثمّ فطن أبو لبابة ورأى أنّه قد خان الله ورسوله فحلف لا يذوق ذواقاً[٣] حتّى يموت أو يتوب الله عليه. وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في ساريةٍ منه فمكث كذلك تسعة أيّام حتّى كان يخرّ مغشيّاً عليه من الجهد حتّى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء النّاس يبشّرونه بتوبة الله عليه وأرادوا أن يحلّوه من السّارية فحلف لا يحلّه منها إلاّ رسول الله ﷺ بيده فحلّه، فقال: يا رسول الله: إنّي كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقةً فقال: يجزيك الثّلث أن تصدّق به » وقيل في سبب النّزول غير ذلك[٤].

---

(١) ٢/٣٠٠ وانظر أسباب النّزول ٢٦٩ وتفسير الطّبري ١٤٦.

(٢) اسمه رفاعة بن عبد المنذر. انظر فتح الباري ٧/٣٢٧ في أسماء أهل بدر في جامع البخاري.

(٣) يقال: ذاق الشّيء يذوق ذَوْقًا وذَواقًا ومذاقًا إذا اختبر طعمه.

(٤) انظر - مثلاً - تفسير الطّبري ٩/١٤٦.

وعلّق ابن جرير على تلك الأسباب بالقول[١] : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصّواب أن يقال إنّ الله نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله وخيانة أمانته . وجائزٌ أن تكون نزلت فى أبى لبابة . وجائزٌ أن تكون نزلت فى غيره ، ولا خبر عندنا بأيّ ذلك كان يجب التّسليم له بصحّته » ويعلّق ابن كثير بالقول[٢] : « قلت : والصّحيح أنّ الآية عامّة وإن صحّ أنّها وردت على سببٍ خاصّ . فالأخذ بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب عند الجماهير من العلماء . والخيانة تعمّ الذّنوب الصّغار والكبار ، اللاّزمة والمتعدّية » .

والمعروف أنّ غزوة الأحزاب وبنى قريظة كانتا سنة خمسٍ من الهجرة[٣] فى حين كانت غزوة بدر فى السّنة الثّانية من الهجرة . ويبدو أنّ من الأسباب الّتى جعلت الآيتين الكريمتين ترتبطان فى الأذهان بأبى لبابة وكذلك بحاطب بن أبى بلتعة رضي الله تعالى عنهما أنّهما شهدا بدراً[٤] وقد صدر من كلّ منهما بعد ذلك هفوة فسّرت بأنّها خيانة . علماً بأنّ هفوة أبى لبابة كانت فى غزوة بنى قريظة سنة خمسٍ من الهجرة وأنّ هفوة حاطب بن أبى بلتعة كانت فى أثناء الاستعداد لفتح مكّة سنة ثمانٍ من الهجرة[٥] حينما أرسل حاطب خطاباً إلى أهل مكّة يخبرهم فيه بعزم النّبيّ ﷺ على فتح مكّة فأوحى الله تعالى إلى النّبيّ ﷺ بما فعل حاطب رضي الله عنه ، واعترف حاطب بما صنع : « فقام عمر بن الخطّاب فقال : يا رسول الله : ألا أضرب عنقه فإنّه قد خان الله ورسوله والمؤمنين . فقال : دعه فإنّه قد شهد بدراً وما يدريك لعلّ الله اطّلع على أهل بدرٍ فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[٦] .

وكان الباعث لكلٍّ من أبى لبابة وحاطب رضي الله تعالى عنهما على ما قاما به أنّ لأبى لبابة عند بنى قريظة ولحاطب عند مشركي قريش أموالاً وأولاداً وقد أراد كلّ منهما أن تكون له يدٌ حمايةً لأمواله وأولاده وأهله .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤٦/٩ . (٢) تفسير ابن كثير ٣٠١/٢ .
(٣) انظر ـ مثلاً ـ تأمّلات فى سورة الأحزاب للمؤلّف . المقدّمة ص ٥ .
(٤) انظر فتح البارى ٣٢٦/٧ : باب تسمية من سُمّيَ من أهل بدر .
(٥) السّيرة النبويّة ٣١/٤ .
(٦) انظر فتح البارى ٦٣٣/٨ حديث رقم ٤٨٩٠ وتفسير ابن كثير ٣٠١/٢ .

ممّا سبق يتّضح وجاهة ، رأي كلٍّ من الطّبرى وابن كثير بأنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب . علماً بأنّ كلّ الأسباب الّتى تُذْكر تحدّث فيها العلماء ، ولم يؤكّدوا واحداً منها . وحينما تعمّ الخيانة الذّنوب الصّغار والكبار ، اللّازمة والمتعدّية[1] يدخل فى الذّنوب المنهيّ المسلمُ عن إيتانها مِثْلُ العمل الّذى قام به اللّذان أرادا أن تكون لهما يدٌ عند اليهود والمشركين . وبناءً على ما سبق يصحّ أن يقال إنّ الآية الكريمة الأولى تنهى الّذين آمنوا أن يخونوا الله تعالى ورسوله ﷺ بارتكاب معصيته جلّ وعلا وترك سنّته ﷺ ، وأن يخونوا أماناتهم الّتى ائتمنهم الله تعالى وقبلوها بعد أن أبت السّماوات والأرض والجبال حملها وأشفقن منها . ومتى تحدث الخيانة ؟ بعد العلم ! وكأنّ ثمّة إصراراً على الخيانة . واللّطيف بشأن نداء الّذين آمنوا أنّه يخضع فى هذا القسم لترتيبٍ لطيف . إنّ القِسْم يبدأ بهذا النّداء : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ﴾ وبعد ثلاث آياتٍ أخر يتكرّر النّداء . وبعد آيتين أخريين يتكرّر النّداء . وبعد آيةٍ واحدة يتكرّر النداء . ويأتى النّداء للمرّة الأخيرة فى الآية الكريمة الأخيرة من القسم . ولمّا كانت الأموال والأولاد من أهمّ أسباب الخيانة بمعنى المعصية ، كان فى الآية الكريمة التّالية النّصّ على هذا المعنى . وإذا كانت الآية الكريمة السّابقة تنتهى بالقول : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ فإنّ هذه الآية الكريمة تبدأ بالقول : ﴿ واعلموا ﴾ وهذا نوعٌ قويّ من الرّباط بينهما . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ أموالنا وأولادنا فتنةٌ واختبارٌ من الله تعالى لنا وابتلاء[2] وإنّ علينا أن نعلم أنّ عند الله تعالى الأجر العظيم فعلينا أن نؤثر الآجلة على العاجلة ، وأن نؤثر المصلحة العامّة على المصلحة الخاصّة .

ولمّا كان المطلوب من المؤمنين أسمى المراتب فقد أرشدت إلى ذلك .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٠١/٢ .

(٢) تفسير الطّبرى ١٤٧/٩ .

الآيـــة رقـــم (٢٩)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم . والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

تنادى آخر آيات القِسْم الّذين آمنوا وتقول لهم إنّكم إن تتّقوا الله تعالى بجعل الأعمال الصّالحة وقايةً بينكم وبين عذاب الله تعالى ، وإنْ تظلّوا فى سموّكم حتّى ترقوا إلى مرتبة التّقوى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك[١] إنّكم إن تتّقوا الله تعالى يجعل لكم ربّكم جلّ وعلا فرقاناً ، فصلاً وفرقاً بين حقّكم وباطل من يبغيكم السّوء من أعدائكم المشركين[٢] وفصلاً بين الحقّ والباطل ليظهر الله به حقّكم ويطفئ به باطل من خالفكم[٣] ويكفّر جلّ وعلا عنكم سيئاتكم ويترك تلك السّيّئات ويذهبها بالحسنات وقد قال عزّ من قائل[٤] : ﴿ إنّ الحسنات يذهبن السّيّئات ﴾ ويغفر لكم ذنوبكم الّتى ارتكبتموها ويسترها ، بل ويبدّل تلك السّيئات والذنوب حسنات وقد قال عزّ من قائل[٥] : ﴿ إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسناتٍ . وكان الله غفوراً رحيما ﴾ . وإلى ذلك الفضل العظيم من الله أشارت الجزئيّة الكريمة الأخيرة من الآية : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

وحينما يكون أهل بدرٍ الّذين قال رسول ﷺ فيهم : « لعلّ الله عزّ وجلّ اطّلع على أهل بدرٍ فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[٦] يخاطبون فى سورة

---

(١) صحيح البخارى ١/٢٠ .
(٢) تفسير الطّبرى ٩/١٤٧ .
(٣) السّيرة النّبويّة ٢/٦٦٩ .
(٤) سورة هود ١١٤ .
(٥) سورة الفرقان ٧٠ .
(٦) فتح البارى ٨/٦٣٤ حديث رقم ٤٨٩٠ .

الأنفال الّتى نزلت فى غزوة بدرٍ فى هـذه الطّرائـق مـن الـتّرغيب والـتّرهيب فكيـف بسواهم.

وحينما يكون ثمّة إشارة إلى جعل الله تعالى للمتّقين فرقاناً ونور بصيرة يفرقون به بين الحقّ والباطل ، وإلى تكفير السّيّئات بمعنى تركها ، وإلى مغفرة الله تعـالى للذّنوب بمعنى سترها ، وإلى الفضل العظيم من الله تعالى الّذى يتمثّل فى المقام الأوّل فى رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىء نكون فى الآيـة الكريمـة أمـام تـدرّجٍ فـى المعانى إلى الأكبر ، وأمام مظـاهر مـن فضـل الله تعـالى وتحـوّلٍ بشـأنها إلى الأعظـم والأضخم ولله الحمد والمنّة .

[٥]

« من مظاهر سفه كفّار مكّة التّكذيب بالقرآن
والاستهزاء بالعذاب والصّدّ عن سبيل الله تعالى فينبغى
قتالهم »

الآيـــات (٣٠ ـ ٤٠)

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا
قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ
فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ
ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟
فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

ممّا حثّت عليه آيات القسم السّابق الشّكران على النّعم وعدم الكفران . وتدور آيات هذا القسم على كفران مشركى مكّة نعمة الله تعالى عليهم بإرسال خير الأنام ﷺ فيهم ، وإنزال أشرف الكتب السّماويّة عليه ﷺ . لقد كان ذلك بالكفر والتّكذيب والاستهزاء والصّدّ عن سبيل الله تعالى وقتال المؤمنين . إنّ من مظاهر تبديل مشركى مكّة نعمة الله تعالى كفراً مكرهم بالمصطفى ﷺ بأن يأسروه ويوثقوه ، أو يقتلوه ، أو يخرجوه قسراً . إنّهم يمكرون بالمصطفى ﷺ وإنّ ربّ العزّة يمكر بهم وهو جلّ وعلا خير الماكرين . وإنّ من مظاهر تبديل مشركى مكّة نعمة الله تعالى كفراً أنّهم إذا تُتلى عليهم آيات الله تعالى قالوا قد سمعنا ووعينا ولو نشاء لقلنا مثل هذا وكذبوا فى هذا الادّعاء كما كذبوا فى الزّعم بأنّ هذا الكتاب العزيز ليس سوى أساطير الأوّلين وأكاذيب الأقدمين . وقد بلغ مشركو مكّة فى الحمق أبعد الغايات حينما سألوا الله تعالى وقالوا يا لله : إن كان هذا القرآن الكريم هو الحقّ الموحى به من عندك : ﴿ فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾ إنّهم بدلاً من أن يسألوا الله تعالى الهداية يصرّون على الضّلالة ، وبدلاً من أن يسألوا الله تعالى المغفرة والرّحمة هم يسألونه جلّ وعلا العذاب والغضب . ولمّا كان عند مشركى مكّة أمانان ، وجود المصطفى ﷺ بين ظهرانَيْهم واستغفارهم الله تعالى فقد جاء النّصّ على هذين النّوعين من الأمان . ويؤكّد هذا المعنى وجود المؤمنين المستضعفين فى مكّة المكرّمة مع المشركين . ولمّا كان كفّار مكّة قد خسروا النّوعين من الأمان بخروج المصطفى ﷺ من بين ظهرانيهم وبخروجهم إلى بدرٍ لقتال المصطفى ﷺ والمؤمنين ودعائهم أن ينصر الله تعالى أهل الحقّ ويهلك أهل الباطل هذا إلى صدّهم المؤمنين عن المسجد الحرام للصّلاة فيه والطّواف بالبيت العتيق فقد نصّ السّياق على استحقاقهم العذاب من أجل ذلك . ثمّ إنّ المشركين لم يكونوا أولياء المسجد الحرام وأهله وقتاً من الأوقات إنّما أولياؤه المتّقون ولكنّ أكثر

النّاس لا يعلمون . ومن الأدلّة على أنّ المشركين ليسوا أهلاً للمسجد الحرام أنّ صلاتهم الّتى هي عماد الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده ليست سوى صفيرهم وتصفيقهم . أين هذه الصّلاة الّتى ما أنزل الله تعالى بها من سلطان من الصّلاة الّتى فرضها الله تعالى على حبيبه المصطفى ﷺ فى السّماوات العلى ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة . وإنّ من مظاهر تبديل مشركى مكّة نعمة الله تعالى كفراً إنفاقهم أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله تعالى ، ومن تلك الأموال قافلة أبى سفيان الّتى نجت فى بدر فقد كانت نواة استعداد المشركين للقتال فى غزوة أُحُد . إنّ السّياق يقرّر أنّ الّذين كفروا سينفقون أموالهم على الفور من أجل هذه الغاية الخسيسة ظنّاً منهم أنّهم يحسنون صنعاً كما يقرّر أنّ تلك الأموال سوف تكون حسرةً وندامةً عليهم ، وأنّهم سوف يُغْلَبون وينهزمون شرّ هزيمة وبذلك يخسرون النّفس والنّفيس . وفى الآخرة هم سوف يُحْشرون إلى جهنّم . وبذلك يكونون قد خسروا كلّ شىء بما فى ذلك أنفسهم . وإنّ ربّ العزّة يغلب الّذين كفروا فى الدّنيا ويحشرهم إلى جهنّم فى الآخرة من أجل أن يميز الله تعالى ويفصل الخبيث من الطّيّب : ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنّم . أولئك هم الخاسرون ﴾ ولمّا كان باب التّوبة مفتوحاً ما لم يغرغر الإنسان وتبلغ الرّوح الحُلقوم فإنّ ربّ العزّة يأمر المصطفى ﷺ بأن يقول للمشركين إنّهم إن ينتهوا عن قتال المؤمنين والكفر يُغْفَر لهم ما سلف فى بدر وغير بدر ، وإن يعودوا إلى القتال والصّدّ عن سبيل الله تعالى فقد مضت سنّة الله تعالى فى المكذّبين الأوّلين ، وقد ذاق المشركون فى بدر مثل ما ذاق المكذّبون الأوّلون . ولمّا كان لله تعالى من الجنود ما لا يعلمه إلاّ هو جلّ وعلا وكان المؤمنون بعض أولئك الجنود فإنّ السّياق يأمر المؤمنين بأن يقاتلوا الكافرين حتّى لا يُفْتَنَ مؤمنٌ عن دينه ويُرْغم على الارتداد عنه أو الانصراف ، وحتّى يكون الدّين كلّه لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . إنّ الكافرين إن انتهوا وكفّوا عن الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى فذلك هو المطلوب والله تعالى بما تعملون بصير . وإن تولّوا وأعرضوا وأصرّوا على الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى فاعلموا أيّها المؤمنون أنّ الله سبحانه وتعالى هو مولاكم : ﴿ نعم المولى ونعم النّصير ﴾ .

الآيـــة رقـــم (٣٠)

قال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الّذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله . والله خير الماكرين ﴾ .

من مظاهر تبديل كفّار مكّة نعمة الله تعالى كفراً ما نصّت عليه هذه الآية الكريمة ممّا له عَلاقةٌ بشخص المصطفى ﷺ . إنّ الآية الكريمة في معرض تبيين بعض فضل الله تعالى على المصطفى ﷺ تقول له : واذكر أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إذ يمكر بك الّذين كفروا من أهل مكّة إذ يكيدون لك ويحرصون على إيصال السّوء إليك وإلصاق الأذى بك . إنّهم يريدون أن يثبتوك ويقيّدوك ويوثقوك[1] وبالتّالي لا تستطيع أن تغادر الحبس فضلاً عن أن تدعو إلى دين الله تعالى ، أو يقتلوك وبالتّالي هم يتخلّصون منك بالكلّيّة ويتحمّلون بالتّالي تبعات القتل مع بني هاشم وبني عبد مناف ، أو يخرجوك من مكّة المكرّمة قسراً ويستفزّوك من أرضها قهراً . ويمكر أولئك الكافرون بك أيّها الرّسول الكريم ويمكر الله سبحانه وتعالى بهم ويردّ كيدهم في نحورهم ، ويميتهم بغيظهم . والله سبحانه وتعالى خير الماكرين ، وأحسن الكائدين . إنّ الكافرين أرادوا الكيد للمصطفى ﷺ ولدين الإسلام ، والله سبحانه وتعالى أراد الخير للأنام ولرسول السّلام ﷺ . وإنّ من أقرب الأدلّة على صفة الخيريّة في حقّ المكر الّذي أذهب الله تعالى به شرّ الماكرين من كفّار مكّة أنّ من بين هؤلاء الماكرين الكائدين للمصطفى ﷺ من هداه الله تعالى للإسلام فقطّع أصابع النّدم على ما فرّط في جنب الله تعالى وفي جنب الرّسول الأعظم صلوات الله تعالى وسلامه عليه وجنب دين الإسلام . ويصحّ أن يكون مكر الكافرين بالمصطفى ﷺ بقصد التّخلّص منه قد حَدَث الجَدَل بشأن مفرداته وفق ترتيب الآية الكريمة لعناصر الأسر والقتل والإخراج . علماً بأنّ الرّأي الشّيطانيّ هو الّذي فاز برضا المشركين بأن يقتلوا المصطفى ﷺ . و المعروف أنّ

---

(١) تفسير الطّبري ١٤٨/٩ .

ربّ العزّة قد أبطل كيد الكافرين فى مختلف صوره بما فى ذلك إخراج المصطفى ﷺ من مكّة فإنّ ربّ العزّة هو الّذى أخرج حبيبه ﷺ وأمره بالهجرة إلى المدينة المنوّرة وليس كفّار مكّة هم الّذين أخرجوه ﷺ فقد كانوا آنذاك حريصين على قتله ﷺ . والدّليل على أنّ ربّ العزّة هو الّذى أخرج المصطفى ﷺ من مكّة وليس المشركون هم الذين أخرجوه هاتان الآيتان الكريمتان من سورة الإسراء[1] قال تعالى : ﴿ وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذن لا يلبثون خلافك إلاّ قليلاً . سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنّتنا تحويلا ﴾ إنّ سنّة الله تعالى قد اقتضت أنّ الأمّة الّتى تستفزّ رسول الله تعالى إليها وتخرجه من بين ظهرانَيْها لا يبقيهم الله تعالى بعد ذلك فى ديارهم . ولمّا كان كفّار مكّة قد بقوا فى ديارهم ما شاء الله تعالى لهم أن يبقوا إلى أن لقوا الله تعالى مسلمين أو غير مسلمين فذلك دليلٌ على أنّهم ليسوا هم الّذين أخرجوا المصطفى ﷺ على الحقيقة وإن كان هذا الإخراج موافقاً لما تَمنّوْا واقترحُوا ومن أجل ذلك نُسِب إليهم الإخراج بهذا المعنى فى مثل قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة محمّد[2] ﷺ : ﴿ وكأيّن من قريةٍ هي أشدّ قوّةً من قريتك الّتى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ .

وبشأن مكر كفّار مكّة بالمصطفى ﷺ وإذهاب الله تعالى مكرهم وتمكين المصطفى ﷺ من الهجرة رغم أنوف المشركين الّذين خافوا أن يلحق ﷺ بالمهاجرين فى المدينة المنوّرة فيكرّ على مكّة فيفتحها وعلى قريش فيهلكها : « قال ابن إسحاق : فحدّثنى من لا أتّهم من أصحابنا ..... عن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما قال : لمّا أجمعوا لذلك ، واتّعدوا أن يدخلوا فى دار النّدوة ليتشاوروا فيها فى أمر رسول ﷺ ، غَدَوا فى اليوم الّذى اتّعدوا له . وكان ذلك اليوم يُسَمّى يومَ الزّحمة[3] فاعترضهم إبليس فى هيئة شيخٍ جليل عليه بتلة[4] فوقف على باب الدّار .

---

(١) الآية ٧٦ و٧٧ .
(٢) الآية ١٣ .
(٣) جاء فى تفسير ابن كثير ٣٠٣/٢ : « فكان ذلك اليوم يسمىً يوم الزّحمة للّذى اجتمعوا عليه من الرّأي» .
(٤) البتلة : الكساء الغليظ .

فلمّا رأوه واقفاً على بابها قالوا : من الشّيخ ؟ قال : شيخٌ من أهل نجد[1] سمع بالّذى اتّعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى ألاّ يُعْدِمكم منه رأياً ولا نُصْحًا . قالوا : أجل ، فَأُدخل فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش ، من بنى عبد شمس : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب . ومن بنى نوفل بن عبد مناف : طُعيمة بن عديّ ، وجُبَيْر بن مُطْعِم ، والحارث بن عامر بن نوفل . ومن بنى عبد الدّار بن قصيّ : النّضر بن الحارث بن كَلَدَة[2] ومن بنى أسد بن عبد العُزّى : أبو البختريّ بن هشام ، وزَمْعه بن الأسود بن المطّلب ، وحكيم بن حزام . ومن بنى مخزوم : أبو جهل بن هشام . ومن بنى سهم : نُبَيْه ومنبّه ابنا الحجّاج . ومن بنى جُمَح : أميّة بن خَلَف ومَنْ كان معهم وغيرهم ممن لا يعدّ من قريش .

فقال بعضهم لبعض : إنّ هذا الرّجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنّا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتّبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً . قال : فتشاوروا ثمّ قال قائلٌ منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً ثمّ تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشّعراء الّذين كانوا قبله ، زهيراً والنّابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتّى يصيبه ما أصابهم . فقال الشّيخ النّجديّ : لا والله ، ما هذا لكم برأي والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجنّ أمره من وراء الباب الّذى أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ثمّ يكاثروكم به حتّى يغلبوكم على أمركم . ما هذا لكم برأي فانظروا فى غيره . فتشاوروا ثمّ قال قائلٌ منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا . فإذا أُخرج عنّا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنّا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . فقال الشّيخ النّجديّ : لا والله ما هذا لكم برأي . ألم تروا حسن حديثه وحلاوة

---

(١) ذكر بعض أهل السّير أنّ إبليس قال ذلك لأنّهم قالوا : لا يدخلنّ معكم فى المشاورة أحدٌ من أهل تهامة لأنّ هواهم مع محمّد ، فلذلك تمثّل لهم فى صورة شيخ نجديّ .

(٢) الكلدة بفتح الكاف واللّام الأرض الغليظة فى الأصل . القاموس .

منطقه وغلبته على قلوب الرّجال بما يأتى به . والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحلّ على حيّ من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتّى يتابعوه عليه ، ثمّ يسير بهم إليكم حتّى يطأكم بهم فى بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثمّ يفعل بكم ما أراد . دبّروا فيه رأياً على هذا . قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله إنّ لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كلّ قبيلةٍ فتىً شابًّا جليداً نسيباً وسيطاً[1] فينا ، ثمّ نعطى كلّ فتًى منهم سيفاً صارماً ثمّ يَعْمِدوا إليه فيضربوه ضربة رجلٍ واحد فيقتلوه فنستريح منه . فإنّهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه فى القبائل جميعًا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا فرضوا مِنّا بالعَقْل[2] فعقلناه لهم . قال : فقال الشّيخ النّجديّ : القول ما قال الرّجل. هذا الرّأي الّذى لا أرى غيره . فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

فأتى جبريل عليه السّلام رسول الله ﷺ فقال : لا تبت هذه اللّيلة على فراشك الّذى كنت تبيت عليه . فلمّا كانت عَتْمة[3] من اللّيل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه ..... وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حَفْنةً من ترابٍ فى يده ..... وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه . فجعل ينثر ذلك التّراب على رءوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس[4] : ﴿ يس . والقرآن الحكيم . إنّك لمن المرسلين . على صراطٍ مستقيم . تنزيل العزيز الرّحيم . لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنّا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقْمَحون . وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾[5] .

ثمّ ذهب النّبيّ ﷺ فى صحبة أبى بكرٍ رضي الله عنه إلى غار ثور جنوبيّ مكة ومكثا هنالك ثلاثة أيّام ثمّ اتّجها شمالاً إلى المدينة المنّورة . وهكذا قضى الله تعالى

---

(١) الوسيط : الشّريف فى قومه .
(٢) العَقْل : الدّية .
(٣) الثّلث الأوّل من اللّيل أو ظلمة اللّيل مطلقًا .
(٤) الآيات ١ ـ ٩ .
(٥) السّيرة النّبويّة ٢/٤٨٠ ـ ٤٨٣ .

على كيد كفّار قريش ومكرهم بهجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة ووصوله إليها سالمًا غانماً آمنا . ومن مظاهر تبديل كفّار مكّة نعمة الله تعالى كفراً ، إضافةً إلى تكذيبهم للرّسول ﷺ ، تكذيبهم للقرآن الكريم . وإلى ذلك أشارت .

الآيـــة رقـــم (٣١)

قال تعالى : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين ﴾

إنّ كفّار مكّة الّذين يعرف كثيرٌ منهم القراءة والكتابة ، بدليل أنّ من الأسرى في بدر من كان فداؤه أن يعلّم عشرةً من صبيان المدينة المنوّرة القراءة والكتابة[1] لم يكونوا يقرأون القرآن الكريم . إنّهم لم يكونوا وقتاً من الأوقات تنقصهم الحجّة إنّما كان الّذى ينقصهم هو الصّدق فى تحرّى الحقّ والبحث عن الحقيقة . وقد كان منتهى ما يتحقّق لهم فى حقّ القرآن الكريم أن يُتْلَى عليهم . وهذه التّلاوة قد تكون قصداً وقد تكون اتّفاقاً . وفى كل الأحوال يكرّر كفّار مكّة القول : قد سمعنا الكلام الّذى يُتْلَى علينا ويقرأ على مسمعٍ منّا ، ولو نشاء لقلنا مثل هذا ولكنّا لم نشأ، وقد كذبوا . إنّهم لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل أقصر سورةٍ من سور القرآن الكريم وهجروا ميدان الكلام الّذى هم فيه متفوّقون إلى استلال السّيوف واستمراء الحتوف . ويواصل الكافرون الكذب بزعمهم أنّ القرآن الكريم ليس سوى أساطير الأوّلين وأكاذيبهم وخرافاتهم . والأساطير جمع أُسطورة نحو أُرجوحة وأراجيح وأحدوثة وأحاديث[2] وكأنّ هذا النّوع من الكذب فى حقّ القرآن الكريم والزّعم بأنّه ليس كلام ربّ العالمين بمثابة التّعليل لانصراف الكافرين عن الإتيان بأمثال تلك الأساطير . والحقيقة أنّ القوم قد عجزوا أمام تحدّى القرآن الكريم لهم ففرّوا إلى مثل ذلك الزّعم والكذب..

---

(١) انظر هنا ـ مثلاً ـ نور اليقين فى سيرة سيّد المرسلين للشّيخ محمّد الخضرى . الفداء ١٣٧.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « سطر » ٢٣٢ .

ولا يكاد العجب ينتهى من كفار قريش الّذين جرى على ألسنتهم من الدّعاء على أنفسهم ما لا يجرى مثله إلاّ على ألسنة السّفهاء والمجانين فإلى

الآيـــة رقـــم (٣٢)

قال تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حِجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾

تقول الآية الكريمة : واذكر أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إذ قال كفّار مكّة وقد قرع آذانَهُمُ القرآنُ الكريم يرتّله المصطفى ﷺ فى المقام الأوّل : يا ألله . إن كان هذا القرآن الّذى يتلوه محمّد هو الحقّ الموحى به من عندك ﴿ فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾ وحينما نتأمل استعمال القرآن الكريم للمطر نتبيّن أنّه يرتبط به الكثرة فالمطر هو الماء المنسكب[1] ويصحّ أن نفهم كثرة الماء النّازل من السّماء إلى حدّ الإعاقة عن الحركة والإيذاء من قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة النّساء[2] : ﴿ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم . إنّ الله أعدّ للكافرين عذابًا مهيناً ﴾ إنّ كفّار مكّة قد بلغ بهم الحمق إلى الحدّ الّذى يسألون الله تعالى معه المزيد من الضّلال بدل الهداية ، والعذاب الأليم بدل الرّحمة والمغفرة . وبشأن الضّلال وما يترتّب عليه من غضبٍ من الله تعالى عليهم هم يسألون الله تعالى أن ينزل عليهم حجارةً من السّماء تكون من الكثرة والوفرة فى عدد قطرات المطر المنهمر من السّماء انهماراً ! وإذا لم يكن الغضب عليهم واللّعنة فى حقّهم قد تمثّلا فى الحجارة الّتى تنزل عليهم من السّماء فى هيئة المطر فليكن إذن العذاب الأليم فى أيّ صورةٍ من الصّور هو البديل لذلك النّوع من المطر .

وبقدر دلالة هذا القول على سفه كفّار مكّة وحمقهم دلالته على أنّ هؤلاء السّائلين الله تعالى الغضب يصرّون كلّ الإصرار على أنّ الّذى يتلوه المصطفى ﷺ

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « مطر » ٤٦٩ . (٢) الآية ١٠٢ .

ليس من الحقّ في شيء بل من الباطل : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً ﴾[١] ويصحّ أن نفهم استبعاد هؤلاء الدّاعين للعذاب والانحطاط إلى درك الغفلة من مجيء صيغة الدّعاء في جملة : « أتى » الّتي تُسْتَعْمل في القرآن الكريم دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ . ويصحّ أن يكون القول : ﴿ أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾ يفيد البعدين المعنويّ والزّمانيّ . إنّ كفّار مكّة بباعث الحمق والسّفه والجنون ، وربّما بباعث الاستهزاء كذلك يسألون الله تعالى أن يأتيهم بالعذاب الأليم الّذي يأخذهم .

ولمّا كانت رحمة الله تعالى الواسعة قد سبقت غضبه جلّ وعلا وعذابه فقد أومأت إلى هذه المعاني .

الآيــة رقــم (٣٣)

قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون ﴾ .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال أبو جهل : ﴿ اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾ فنزلت : ﴿ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون . وما لهم ألاّ يعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام ﴾ الآية[٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبّيك اللّهمّ لبّيك ، لبّيك لا شريك لك . فيقول النّبيّ ﷺ : قَدْ قَدْ[٣] ويقولون : لبّيك اللّهمّ لبّيك ، لبّيك لا شريك لك ، إلاّ شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . ويقولون : غفرانك غفرانك . فأنزل الله : ﴿ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم ﴾ الآية : قال ابن عبّاس: كان فيهم أمانان ، النّبيّ ﷺ والاستغفار . فذهب النّبيّ ﷺ وبقي الاستغفار[٤] .

---

(١) سورة الكهف ٥ . (٢) فتح الباري ٣٠٨/٨ حديث رقم ٤٦٤٨ وانظر حديث رقم ٤٦٤٩.
(٣) قد قد هنا بمعنى حسبكم هذا القدر من القول الّذي فيه التّوحيد ولا تتجاوزه إلى الشّرك .
(٤) تفسير ابن كثير ٣٠٥/٢ وانظر تفسير الطّبري ١٥٤/٩ .

ويلحق باستغفار المشركين الله تعالى وجود المستضعفين من المؤمنين الّذين يستغفرون الله تعالى بطبعهم بين ظهرانَيْ كفّار قريش فى مكّة المكرّمة. لقد نصّت سورة الفتح على أنّ وجود المؤمنين بين ظهرانَيْ مشركى مكّة سبب صرف الله تعالى العذاب عن المشركين ، وأنّ المؤمنين لو تزيّلوا وتميّزوا عن الكفّار وابتعدوا منهم لعذّب الله تعالى الّذين كفروا عذابًا أليماً[1] جاء فى سورة الفتح[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ هم الّذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهَدْيَ معكوفاً أن يبلغ مَحِلّه . ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرّةٌ بغير علمٍ ليدخل الله فى رحمته من يشاء . لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذابًا أليماً ﴾ ومن البيّن أنّ صرف الله تعالى العذاب عن المشركين لوجود المؤمنين بين ظهرانيهم من جنس صرف الله تعالى العذاب عن المشركين لوجود المصطفى ﷺ بين ظهرانَيْهم .

وهكذا صرف الله تعالى العذاب عن المشركين للأمانين المذكورين فى الآية الكريمة ، وجود المصطفى ﷺ فيهم واستغفارهم الله تعالى . والآية الكريمة التّالية تتحدّث عن العذاب الّذى استحقّه القوم بعد ذهاب الأمانين فإلى .

الآيــة رقــم (٣٤)

قال تعالى : ﴿ وما لهم ألاّ يعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه . إن أولياؤه إلاّ المتّقون ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

عرفنا بشأن القول فى الآية الكريمة التّاسعة عشرة من السّورة ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ أنّ المستفتح هو أبو جهل الّذى قال حين التقى القوم فى بدر : اللّهمّ أيّنا كان أقطع للرّحم ، وأتانا بما لم نعرف فأحِنْه الغداة[3] بمعنى فأهلكه فكان

---

(١) انظر هنا ـ مثلاً ـ فتح البارى ٣٠٩/٨ . (٢) الآيــة ٢٥ .
(٣) انظر أسباب النّزول ٢٦٨ .

الهلاك من نصيبه ومن نصيب المشركين ، وبذلك يكون المشركون بخروجهم من مكّة ونسيان الاستغفار قد زال عنهم الأمانان فاستحقّوا العذاب الأليم . إنّ الآية الكريمة تسأل : وما لهم ألاّ يعذّبهم الله تعالى ، وكيف لا يعذّبهم الله[١] عزّ وجلّ وهم يصدّون المؤمنين عن المسجد الحرام فى مكّة المكرّمة فيمنعونهم من الصّلاة فى المسجد الحرام والطّواف بالبيت العتيق . وبذلك جمع المشركون بين الكفر بالله تعالى والصدّ عن دينه جلّ وعلا . وأولئك المشركون ما كانوا وقتاً من الأوقات أولياء المسجد الحرام ولا أهله[٢] ما أولياء المسجد الحرام[٣] إلاّ المتّقون الّذين يتّقون الله تعالى بعمل الصّالحات واجتناب السّيّئات وجعل ذلك وقايةً من عذاب الله تعالى ، هذا إلى الارتقاء فى مجال التّقوى حتّى بلوغ أسمى مراتبها وهي مرتبة الإحسان بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . إنّ أكثر المشركين لا يعلمون هذه المعاني السّامية والمرامي البعيدة ولهذا هم يظنّون أنّ مجرّد قربهم من المسجد الحرام معناه أنّهم هم أهله وإن كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى .

وإنّ من أكبر الأدلّة على أنّ المشركين ليسوا أهل المسجد الحرام أنّهم بعد أن كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى أتوا فى مجال العبادة الّتى رُمز لها بأهمّ أركانها وهو الصّلاة بالمكاء بمعنى الصّفير ، والتّصدية بمعنى التّصفيق[٤] وفى استخدام لفظة المكاء تنبيهٌ إلى أنّ ذلك جارٍ مَجْرى مكاء الطّير وصفيره وغِنائه[٥] ويَرْسُخ هذا المعنى ويَتأكّد عدم تحقيقِ المشركين الهدف الّذى خُلِقوا من أجله وهو إفراد الله تعالى بالعبادة وذلك من ذكر التّصدية بعد الصّفير ، لأنّ التّصدية بالنّظر إلى أصلها اللّغويّ تعنى كلّ صوتٍ يجرى مجرى الصَّدَى ورجع الصّوت . والصَّدى صوتٌ يرجع إليك من كلّ مكان[٦] .

(١و٢) تفسير ابن كثير ٣٠٦/٢ .
(٣) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ١٨٤/٥ والجلالين .
(٤) انظر مثلاً تفسير الطّبري ١٥٧/٩ وتفسير ابن كثير ٣٠٦/٢ .
(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : « مكا » ٤٧١ .
(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : « صدى » ٢٧٨ .

إنّ كفّار مكّة الّذين صدّوا المسلمين عن الصّلاة فى المسجد الحرام والطّواف أتوا بصلاةٍ ما أنزل الله تعالى بها من سلطان فهي ليست سوى الصّفير بالأفواه والتّصفيق بالأيدى فاستحقّوا أن يذوقوا العذاب الأليم بسبب كفرهم أُسّ البلاء .

وبالإضافة إلى صدّ المشركين للمؤمنين عن الصّلاة فى المسجد الحرام هم ينفقون أموالهم فى الصّدّ عن سبيل الله وإلى ذلك أشارت .

الآيـــة رقـــم (٣٦)

قال تعالى ﴿ إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرةً ثمّ يُغلَبون . والّذين كفروا إلى جهنّم يُحْشَرون ﴾

قال محمّد بن إسحاق فى سبب النّزول : لمّا أصيبت قريش يوم بدرٍ ورجع فلّهم إلى مكّة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أميّة فى رجالٍ من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر . فكلّموا أبا سفيان بن حربٍ ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش : إنّ محمّداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلّنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منّا ففعلوا . قال : ففيهم كما ذُكِر عن ابن عبّاس أنزل الله عزّوجلّ : ﴿ إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ﴾ إلى قوله : ﴿ هم الخاسرون ﴾ وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عيينة وقتادة والسّدّى وابن أبزى أنّها نزلت فى أبى سفيان ونفقته الأموال فى أُحُد لقتال رسول الله ﷺ[1] وكانت بدر فى رمضان يوم الجمعة صبيحة سابع عشرة من شهر رمضان[2] فى السّنة الثّانية من الهجرة[3] وكانت غزوة أحد يوم السّبت الخامس عشر من شهر شوّال سنة ثلاثٍ من الهجرة على رأس أحدٍ وثلاثين شهراً من الهجرة[4] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٠٧/٢ وتفسير الطّبري ١٦٠/٩ وأسباب النّزول ٢٧١ و٢٧٢ والسّيرة النّبويّة لابن هشام ٦٤/٣ .

(٢) تفسير الطّبري ١٦٠/٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٠٠/١ .

(٤) تفسير ابن عطيّة ٢٩٦/٣ .

ومن المعروف أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب . فكما أنّ الآيات الكريمات تصحّ فى حقّ مشركى قريش هي تصحّ فى حقّ كلّ الّذين يكفرون ويصدّون عن سبيل الله تعالى فى كلّ زمانٍ ومكان .

وإنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين كفروا بالله تعالى وبالرّسول الكريم ﷺ وبالكتاب الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله تعالى وصرف النّاس عن الدّخول فى دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده وإخراج المسلمين من دينهم . والمعروف أنّ المال نفيسٌ وأنّ المرء ينفقه فى العادة فى سبيل الحصول على ما يستحقّ أن يُدْفَع ثمناً له حسب اعتقاده . والعجيب فى أمر هؤلاء الّذين أعمى الله تعالى بصائرهم أنّهم ينفقون هذا المال فيما يضرّهم ولا ينفعهم ويئول عليهم بالخسران المبين .

وإنّ الآية الكريمة ، فى مجال الإنباء بالغيب بشأن كلّ الّذين ينفقون أموالهم العزيزة عليهم ليصدّوا عن سبيل الله تعالى ، تقرّر أنّهم سينفقون تلك الأموال . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل حرف السّين الدّالّ على المستقبل القريب وذلك فى القول : ﴿ فسينفقونها ﴾ ويصحّ أن تفيد السّين هنا سرعة مبادرة الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى إلى إنفاق أموالهم فى سبيل هذه الغاية الخسيسة ظنّا منهم أو اعتقاداً منهم أنّهم يحسنون صنعاً . والحقيقة أنّهم هم الأخسرون أعمالاً . وإلى هذا المعنى أومأ القول : ﴿ ثمّ تكون عليهم حسرةً ثمّ يغلبون . والّذين كفروا إلى جهنمّ يُحْشرون ﴾ .

ومن البيّن مجىء حرف العطف ثمّ مرّتين اثنتين وهو يفيد التّرتيب مع التّراخى . والمعنى أنّ الّذين كفروا الّذين يبادرون إلى إنفاق أموالهم فى الصّدّ عن سبيل الله تعالى سوف تكون عليهم تلك الأموال حسرةً وندامةً لأنّهم سوف يتبيّنون أنّهم أنفقوها فى غير طائل ووضعوها فى غير موضعها وأنّها لم تحقّق الهدف الخسيس الّذى أُنْفِقَت من أجله . بل إنّ الأمر لا يقف عند هذا الحدّ إنّما يتجاوزه إلى هزيمتهم

المنكرة أمام الإسلام والمسلمين ، بمعنى أن ينصر الإسلام ويدخل النّاس فيه أفواجًا . ومن البيّن أنّنا بصدد مظهرٍ من مظاهر إنباء هذا الكتاب العزيز بالغيب بأنّ الله سبحانه وتعالى سوف يظهر هذا الدّين على الدّين كلّه ولو كره المشركون وكفى بالله شهيداً . وبقدر الشّحنة من الاطمئنان الّتى تزوّد الآية الكريمة المؤمنين بها هم مطلوبٌ منهم العمل من أجل إفساد مخطّطات الخصوم ودحض أباطيلهم بكلّ الوسائل المشروعة الممكنة . وسوف نتبيّن أنّ السّياق يطلب من المؤمنين أن يقاتلوا الكافرين حتّى لا يُفْتَن مؤمنٌ عن دينه وحتّى يكون الدّين كلّهُ لله تعالى . وإذا كان من نصيب الصّادّين عن سبيل الله تعالى ومن حظّهم فى الحياة الدّنيا النّدامة على ضياع أموالهم وذهاب جهودهم أدراج الرّياح فإنّ من نصيبهم وحظّهم فى الآخرة أن يُحْشَروا إلى جهنّم وأن يساقوا جميعاً بعنفٍ إلى النّار وبئس القرار .

وكما كان مصير هؤلاء الخبثاء الحشر إلى جهنم كان مصير أعمالهم الخبيثة ، وإلى ذلك أشارت .

الآيــة رقــم (٣٧)

قال تعالى : ﴿ ليميزَ الله الخبيث من الطّيّب ويجعلَ الخبيث بعضَه على بعضٍ فيركمَهُ جميعاً فيجعلَه فى جهنّم . أولئك هم الخاسرون ﴾ .

المَيْزُ والتّمييز الفصل بين المتشابهات . يقال : مازَه يَميزه مَيْزاً وميّزه تمييزاً[1] وإنّه بالنّظر إلى المواضع فى القرآن الكريم الّتى جاء فيها التّنبيه إلى الفصل بين المتشابهات يتبيّن أنّ الفصل أو التّمييز اتّجه إلى الخبيث لفصله وعزله عن الطّيب وإلى المجرمين لفصلهم وعزلهم عن المؤمنين المتّقين . وهذه المواضع تتمثّل فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها ، وفى قول الحقّ جلّ وعلا فى المعنى ذاته فى سورة آل عمران[2] : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتّى يميز الخبيث من الطّيّب . وما

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « ميز » ٤٧٨ .

(٢) الآية ١٧٩ .

كان الله ليطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتّقوا فلكم أجرٌ عظيم ﴾ وبشأن المجرمين يأتى الموضع الأخير فى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة يس[1] : ﴿ وامتازوا اليوم أيّها المجرمون ﴾ وليس بخافٍ تطوّر الدّلالة بشأن الامتياز فبعد أن كان يعنى عزل الخبيث عن الطّيّب أصبح يعنى عزل الطّيّب عن الّذى يقلّ عنه درجةً أو درجاتٍ فى هذه الصّفة .

وإنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين كفروا إنّما يُحشرون فى الآخرة أو يُغلَبون فى الدّنيا ليميز الله تعالى ويفصل ويفرق[2] الخبيث من أعمال الكافرين من الطّيّب من أعمال المؤمنين ، ويجعل جلّ وعلا : ﴿ الخبيث بعضَه على بعض فيركمه جميعاً ﴾ ويجعل بعضه متراكباً على بعضٍ ومتراكماً كتراكم بعض السّحاب على بعضه الآخر فيجعله جلّ وعلا مع أصحابه فى جهنّم . وهكذا يكون الخبيثون مع أعمالهم الخبيثة فى النّار وبئس القرار . وبذلك يتأكّد أنّ الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى هم الخاسرون حقاً . إنّهم خسروا الدّنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين والأكيد .

ولّما كان باب التّوبة مفتوحاً لمن تاب وآمن وعمل صالحاً فإنّ الآية الكريمة التّالية تشير إلى هذا المعنى فإلى .

الآيـــة رقـــم (٣٨)

قال تعالى : ﴿ قل للّذين كفروا إن ينتهوا يُغْفَرْ لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنّة الأوّلين ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ كما تأمر وراء ذلك كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلامية أن يقول للّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى من قريشٍ وسائر الكافرين بأنّهم إن ينتهوا عن الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى ويكفّوا عن قتال المصطفى ﷺ والمسلمين يغفر الله تعالى لهم بفضله جلّ وعلا ما سلف منهم وبدر

---

(١) الآيـة ٥٩ .　　(٢) تفسير الطّبرى ١٦١/٩ .

فى الماضى من كفرٍ وصدٍّ وقتالٍ للمسلمين . وإن يعودوا إلى قتال المسلمين بباعث الكفر والرّغبة فى الصّدّ عن سبيل الله تعالى فقد مضت سنّة الله تعالى الّتى لا تتخلّف فى الكافرين السّابقين الّذين أخزاهم الله تعالى فى الدّنيا والآخرة ومنهم كفّار قريش الّذين أخزاهم الله تعالى فى يوم الفرقان فى بدر يوم التقى الجمعان جمع المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ وجمع المشركين بقيادة أبى جهل عليه لعنة الله تعالى .

ولمّا كان الكافرون لم ينتهوا عن كفرهم ولم يرتدّوا عن غيّهم بل استمرّوا فى قتال المؤمنين بباعث الصّدّ عن سبيل الله تعالى فحقّت كلمة الله تعالى بعذابهم جرياً على سنّة الله تعالى الّتى مضت ، وكان المسلمون هم وسيلة العذاب الّذى يحلّ بالكافرين فقد كان فى الآية الكريمة التّالية الأمر للمؤمنين بممارسة مهمّتهم بقتال الكافرين حتّى ينتهوا عن محاولة الصّدّ عن سبيل الله تعالى . وكان فى الآية الكريمة الأخرى الوعد للمؤمنين بالنّصر من الله تعالى على الكافرين . وهاتان هما :

الآيتان رقم (٣٩ و ٤٠)

قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنةٌ ويكونَ الدّين كلُّه لله . فإن انتَهَوْا فإنّ الله بما يعلمون بصير . وإن تولّوا فاعلموا أنّ الله مولاكم . نعم المولى ونعم النّصير ﴾ .

تأمر الآية الكريمة الأولى المؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكان ، ابتداءً بالصّحابة رضوان الله تعالى عليهم الّذين يقودهم المصطفى ﷺ فى الغزوات بأن يقاتلوا المشركين حتّى لا تكون فتنةٌ فلا يُفْتَن مؤمنٌ عن دينه[1] ولا يرغم مسلمٌ على تغيير معتقده ، ولا يحال بين أيّ إنسان وبين أن يمارس حرّيّته المطلقة فى اختيار دين الإسلام الّذى أكمله جلّ وعلا ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا ، وحتى يكون الدّين كلّه لله تعالى وحده لا شريك له فقد وعد جلّ وعلا ووعده الحقّ بأن يظهر دين الإسلام الّذى بعث به محمّد بن عبد الله ﷺ على الدّين كلّه ولو كره المشركون ، وكفى بالله

---

(١) تفسير الطّبري ١٦٢/٩ .

شهيدا . ومن البّين أنّ فى الآية الكريمة إيماءً إلى أنّ إعداد المسلمين القوّة الّتى يرهبون بها أعداء الله تعالى ينبغى أن تسير جنباً إلى جنب الدّعوة إلى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطّريقة الّتى هي أحسن .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الكافرين إن انتهوا عن قتال المؤمنين والصّدّ عن سبيل الله تعالى والكفر واعتنقوا دين الإسلام فقد أصبحوا إخوةً للمؤمنين حسب الظّاهر والله تعالى هو البصير بما يعملون ويقولون الخبير بما يعملون ويقولون ويضمرون . إنّ الله سبحانه وتعالى هو المحاسب لكلّ إنسان وليس على المصطفى ﷺ سوى البلاغ المبين ، وليس للمؤمنين سوى الظّاهر أمّا الباطن فأمره لله تعالى وحده لا شريك له .

ثبت فى الصّحيحين عن رسول الله ﷺ أنّه قال : أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلاّ الله . فإذا قالوها عصموا منّى دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابها على الله عزّ وجلّ[1] .

والآية الكريمة الأخرى تخاطب المؤمنين وتقول لهم : إنّ الكافرين إذا أصرّوا على التّولّى والإعراض ، ولم ينتهوا عن الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى وقتالكم فاعلموا أيّها المؤمنون أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يتولّى أموركم ، ويرعى مصالحكم ، ويدبّر شئونكم . فعليكم الامتثال لتعاليم دين الإسلام كما يبيّنها القرآن الكريم وسنّة خير الأنام ﷺ . إنّ كلاً من القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة موحًى به من ربّ الأنام مولاكم جلّ وعلا . إنّه جلّ وعلا نعم المولى لمن تولاّه ورعاه ، ونعم النّصير لمن نصره وقوّاه .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٠٩/٢ .

[٦]

« توزيع الغنائم وتأييد الله تعالى المؤمنين وخِذْلان الكافرين »

الآيات (٤١ ـ ٤٤)